
روايات الهلال
صخرة فى الأنفوشى
محمد جبريل
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
DH 12/00

صخرة فى الأنفوشى

محمد جبريل

دار الهـلال

الإهــداء

إلى أحمد بهاء الدين

كم يبدو الحرص على المبدأ قاسياً

محمد جبريل

يستند إلى الدرابزين الخشبي فى صعوده على السلالم الرخام ، يلتقط أنفاسه فى بسطة الطابقين ، الأول والثانى.

الشقة فى الطابق الثالث.

يتنبه ـ بعد ضغطة الجرس ـ إلى خلو الشقة.

يدير المفتاح فى الباب. يطالعه الصمت والظلمة ورائحة إغلاق الشقة: الأثاث، وكتمة الهواء، والرطوبة.

مع أن مروة ماتت فى المستشفى، فإن الموت يسرى فى الشقة، أو هذا ما يشعر به وهو يخطو من الباب إلى الصالة.

يدرك أنه لم يألف الحياة فى الشقة بمفرده. يضيء النور. اللمبة المدلاة من السقف تتأرجح بهبات الهواء المترامية من البحر، تلقى ومضات وظلالاً، متشابكة ومتقاطعة، على الأرض والجدران والسقف. يطالعه الأثاث والستائر والصور المعلقة. يبدو المشهد غير ما اعتاد الحياة فيه، ينظر ـ بالنسيان والتلقائية ـ إلى باب حجرة النوم، كأنها ستفطن إلى دخوله الشقة، لكنه يعود إلى نفسه.

هذه هى المرة الثانية التى يجد نفسه وحيداً. المرة الأولى بعد وفاة عنايات. كان الأبناء قد عادوا إلى بيوتهم بعد أيام العزاء الثلاثة.

رحلت مروة ، فتكرر ما حدث .

تصور أنه ـ بعد أن تخلو الشقة عليه ـ سينشغل بدنياه الخاصة،

دنيا أخرى هو الذى يصنع قسماتها وملامحها، لكن حركته اقتصرت بين باب الشقة وحجرة النوم، لا يميل عنهما إلا لدخول الحمام، استمع إلى نفسه يقول : ليس لدى ما أفعله!.

حتى حركة القادمين من باب الجمرك والمتجهين إليه، لم تعد تغريه بالوقوف فى النافذة المطلة على شارع أبو وردة.

البيت ذو الطوابق الثلاثة، واجهته على شارع السلاوى، متفرع من أبو وردة، تميزه النوافذ ذات الضلف الخشبية الحائلة اللون، والنوافذ العريضة، والسقوف العالية، والطلاء المتقشر عن قطع الحجارة البيضاء، يضم ست شقق، يسكن شقة فى الطابق الأول، يخرج إلى عمله، ثم - بعد المعاش - إلى الجامع والقهوة، يمضى من أبو وردة، إلى رأس التين، يميل إلى جامع سيدى عبد الرحمن، أو يواصل السير إلى قهوة السمان المطلة على البحر، ربما اخترق الشارع الضيق المجاور، تطل عليه شرفات تكاد تتلاصق ومناشر غسيل وأسلاك ونداءات وصيحات ووجوه ألف رؤيتها، يحاذر البرك الآسنة المتخلفة من مياه الغسيل. ينحنى فى اليسار إلى شارع إسماعيل صبرى، يعبر تقاطعه مع فرنسا، وشارع محمد كريم، حتى القهوة فى نهاية الشارع.

كان على صلة طيبة بالجيران، يعرفهم ويعرفونه، غابوا بالانتقال إلى أحياء أخرى، أو بالموت. حتى القهوة والمطعم أمام البيت، وصالون الحلاقة فى أسفل، مات أصحابها. حل جيران جدد، هو - بالكاد - يعرف أسماءهم، التقطها من راوية والولدين قبل أن يتركوا البيت، أو فى زيارتهم له. اقتصرت علاقته بالجيران الجدد على هز الرءوس بالتحية، وتبادل السلام، فى لقاءات المصادفة.

مضت قدماه - رابع أيام العزاء - إلى بيوت الأبناء الثلاثة، كأنه يطمئن إلى وجودهم فى حياته، وأن حياته - برحيل مروة - لم تنقص

شيئاً.

تملكه الخواء.

خلت الدنيا من حوله، الوحدة تجالسه فى التنقل بين شقته وبيوت الأبناء. حتى جلسائه فى المقهى، وفى صلاة الجمعة بأبو العباس، ودروس المغرب فى عبد الرحمن بن هرمز، تناقصوا، تساقطوا من أنفسهم، أو لأنه يؤثر الوحدة، تسلمه مشاعر قاهرة إلى شرود لا يكاد يفارقه.

استقر فى أعماقه أن كل ما ينتمى إليه، ويحبه، ما هو جزء من ذكرياته، من نفسه، يبتعد عنه، يفرض عليه العزلة والغربة، لم يعد فى حياته ما يعود إليه، من يعود إليه، تخلى عنه من حوله، ما حوله.

ما أهمية أن يعيش مائة عام دون معنى ؟! هل ينقضى العمر مثل نكتة سخيفة ؟!

يحزنه الشعور بالوهن، كأنه انفصام بين اعتزامه الحركة: الوقوف، السير، القعود، الحركة الفعلية، يتحسس الفراش جواره، تلامس يده البرودة، يستعيدها حزيناً، يفطن إلى ما غيبه النوم، يتهيأ للقيام من رقدة السرير، أو جلسة الكنبة، يعتزم الفعل، لكنه يتردد، تناوشه قوة - لا يتبينها - تجعل تصرفه التالى صعباً، يشعر بالوهن فى ساقيه من قبل أن يحركهما، هما لن تستجيبا لنيته، يفكر فى أن يلزم موضعه، لكن نفسه تأذن له بالتحامل، يحرك أطرافه ورأسه وأعلى صدره، يقوم متباطئاً حتى يفرد طوله، يظل - لحظات - فى وقفته، ثم يلجأ إلى ذاكرته: أين يذهب ؟

ربما أطال الاستلقاء فى السرير، يحدق فى تكوينات السقف والجدران، وضوء الشارع الخافت، المنبعث من شيش النافذة، قد

يصيخ سمعه لالتقاط النداءات والصيحات من المقهى المقابل.

حاول أن يزيد فى ساعات النوم. ظل فى السرير إلى ما بعد الموعد الذى ألفه، تمنى اختصار الوقت. دقائق، ثم تحرك فى داخله ما يدعوه إلى ترك السرير، جلس ـ بتكاسل ـ على كنبة الصالة، مضى ناحية النافذة، فتحها، تقافزت حمامة بيضاء فوق الإفرين، ثم طارت.

استند إلى الإفريز الحديدى، تطلع ناحية باب الجمرك، وزجاج المفارق فى صفر باشا. انسحبت نظراته إلى المقهى المقابل، كان خالياً إلا من الجرسون، وضع الكراسى ـ بالمقلوب ـ فوق الطاولات، وانشغل برش نشارة الخشب على بلاط الأرضية.

فضل أن يظل فى الشقة بمفرده. اعتذر لراوية باختياره. وعدها أن تتعدد زياراته لها، ولإخوتها.

لم يعد لديه وقت خاص ، حياة خاصة ، حياته ـ هذا ما استقر عليه ـ ملك لراوية ومدحت وسعيد ، إذا لم يكن امتلاكهم لها بالفعل ، فبتفكيره هو ، هو دائم التفكير فى الأبناء الثلاثة ، تشغله مشكلاتهم ، يشغله كذلك شحوب توقعاته الشخصية : ما صورة الأعوام ـ أو الأيام ـ القليلة ، القادمة ؟ كيف يواجه الشيخوخة ؟ هل يظل أبناؤه على صلتهم به ، أم ينصرفون إلى شئونهم ، فتحاصره الوحدة ؟

إقامة الولدين والبنت فى بحرى جعلت التنقل بين الأبناء الثلاثة طقساً متقارباً . يجلس دقائق للاطمئنان ، أو يقضى وقتاً فى تبادل الأحاديث ، وتناول الطعام ، ومشاهدة التليفزيون . بدا له معنى حياته فى الأبناء الثلاثة ، خشى أن يمثل انتقالهم من البيت حاجزاً ـ قد لا يكون مرئياً ـ بينهم وبينه .

ترددت على البيت ـ يوماً كل أسبوع ـ امرأة تقارب الخمسين،

زكتها راوية لترتيب الشقة ، وتنظيفها ، وغسل الملابس ، وإعداد القهوة. تعود أن تنشغل زوجتاه بأمور البيت ، لا شأن له بما يجرى داخله .

منذ رحلت مروة ، لم يعد يتناول طعاماً فى البيت ، يكتفى بساندوتشات فى سيره من البيت وإليه ، إذا هفت نفسه إلى أكلة يحبها ، فإنه يزور راوية ، أو يدعوها لطبخها فى شقته ، هى أعرف بما يريده ، أو يتجه إلي مطعم بشارع الميدان القريب . لا يشغله إن ظلت الثلاجة خالية ، لكنه حرص على ملء الزجاجات بالماء ، يشعر باحتياج متكرر إلى الشرب ..

هل هى بوادر السكر ؟

لم يكن أعد نفسه لرحيل مروة [أبدت راوية تأثرها لأن مروة تركت البيت إلى المستشفى ، فلم تعد ثانية] . لم يتصور أنها قد تسبقه فى الرحيل . فارق السن بينها وبينه ، مضى به فى الاتجاه الواضح القسمات ، أعد نفسه للرحيل قبل أن يختطفها الموت . الاختطاف هو ما حدث . أذهله رحيلها المفاجئ ، يعرف أن المرء - حتى لو طال مرضه - لا يموت دون مقدمات ، تسبق الوفاة فترة من اشتداد المرض ، تطول أو تقصر ، يزكى حياة مروة سنها الصغيرة .

راوية ومدحت وسعيد ، كل يعيش فى بيته . ماتت مروة ، ففرضت الوحدة تأثيراتها، لم تعد الطاقة تواتيه كما كان الأمر قبل أشهر . هل هو تقدم العمر؟

كيف يتصرف إن أقعدته الشيخوخة - إذا لم يرحل ، فستأتى - فأعوزته المساعدة: هل يترك باب الشقة مفتوحاً ؟ يلجأ إلى التليفون ؟ يبحث عن ونس، يطمئن إلى عونه وقت الحاجة ؟

تعرف إلى أبيها فى حلقة ذكر الشيخ النمكى على رصيف البوصيرى ، يندسان فيها عصر كل يوم . مضيا - بأحاديثهما - إلى قهوة مخيمخ المطلة على الميدان . تزاورا ، تعرف زكريا باحة إلى أبناء رجب كيرة ، تناول رجب القهوة من يد مروة . تكلم زكريا باحة عن انشغاله بمرضها ، تفاجئها - وتفاجئه - نوبات الإغماء ، لا يدرى إن لحقها بالأنسولين ، أم أعطاها قطعة حلوى ، أم أسرع بها - فلا تفاجئه التوقعات القاسية - إلى المستشفى .

عاد إلى مألوف أيامه ، يتناول الطعام فى مواعيده ، يرتدى ثياباً مغسولة ، ومكوية ، تعد له البدلة ، أو القميص والبنطلون ، وتلمع حذاءه ، قبل أن يذهب إلى المقهى ، تكوى الجلباب قبل أن يتجه إلى الحضرة ، تنتظر عودته آخر الليل .

أغنته عن فعل أى شيء ، تتابع نظرته المتلفتة ، فتفطن إلى ما يريد، تأسره ملاحظاتها على الوهن فى حركاته ، الجلباب الذى يجب أن يبدله ، برد الصباح الباكر ، فهى تصر أن يرتدى ملابس ثقيلة ، تأخره فى المقهى ، أو حلقة الذكر :

- أخاف أن تتعب !

تخفى راوية ابتسامتها عندما يناديها باسم مروة .

كانت أنفاسها فى الشقة مطمئنة لأيامه ، يأنس إليها ، وإن لم يتبادلا من الكلمات سوى ما تمليه الضرورة ، تريحه بصمتها ، وحرصها ألا تضايقه بملاحظات أو أسئلة ، المرأة الذكية لعنة يستعيذ

بالله منها . فى إدارة التفتيش بهيئة النقل العام ، عرف أكثر من واحدة ، لا يذكر الأسماء ، وإن طفت الملامح فى الذهن بما يصعب نسيانه .

كانت المشكلة فى داخله ، هى تقبل العيش فى بيته ، تلبية احتياجاته ، حتى الاحتياجات الجسدية ، لا تبين عن ضيق أو رفض ، فهما زوجان ، يغيظه شعور الأبوة الذى ينظر به إليها . لم يتصور مناداتها له باسمه غير مسبوق بكلمة " سى " فهو سى فلان ، ونهر «سعيد» لما نبهها أن الزوجة تنادى زوجها باسمه المجرد :

ـ ما العيب فى أن تحترم المرأة زوجها ؟!

بدا العالم عصياً على الفهم .

تبين ـ بعد أشهر من وفاة عنايات ـ أن الأنثى غابت عن البيت ، لكنها مقيمة لا تزال فى داخله ، تدغدغه ، تثيره ، تحرك كوامن فى نفسه لم يفطن إليها فى سنى زواجه . حتى زميلاته فى المكتب . تبدلت إليهن نظرته ، هو رجل وهن إناث ، يتأمل المكان ، يبحث عما لم يكن يهمه من المعانى .

أغمض سعيد عينيه ، وعد على أصابعه ، وهمس بكلمات مدغمة ، ثم قال :

ـ أجر الخادمة هذه الأيام فوق الثلاثمائة جنيه .

وأطلق ضحكة متكلفة :

ـ مصاريف الزوجة أقل بكثير !

قالت راوية :

- أنت تحتاج إلى زوجة ، ولو لمجرد الونس .

أشفقت عليه إحساسه بالفقد ، يبين فى اقتضاب كلماته ، وشروده ، والحزن الذى يسم تصرفاته .

لا تعرف أن الونس ليس وحده ما يطلبه ، تقدمه فى السن لا يمثل ضعفاً فى استجابته إلى المرأة..

قال فى لهجة متأثرة :

- أشكر الله أنى بلغت المعاش دون متاعب صحية !

واتته الدعابة ، قال للبنت نجية بائعة اليانصيب :

- غاب عن الشبان حسنك .. هل تتزوجيننى ؟

دون أن تنظر ناحيته :

- ربما - بعد سنوات - يخطبنى شاب .. لكنك لن تكون هنا !

فهم المعنى ، فسكت .

يكتم شعوره بالوهن . يقرن جلساء المقهى بين الشيخوخة وفقد الرغبة . هو لا يجد فى نفسه هذا المعنى .

الزوجة الونس هى ما تتصور راوية احتياجه لها ، تختزل اقتراحها بزواجه فى مجرد المرأة التى تأخذ نفسه ، ربما هو تصور أخويها وأصدقائه . الزوجة الزوجة ، المؤانسة والدفء والعلاقة بين زوجين ، رجل وامرأة ، ذكر وأنثى ، هى ما يشغله ، يشعر أنه يملك من القوة الجسدية ما يجعله زوجاً حقيقياً ، وليس مجرد شيخ يطلب الونس .

قال إمام سيدى عبد الرحمن فى نبرة محذرة:

- لجسد المرأة حقه من الإشباع.

ورمقه بنظرة متأملة:

- إذا تنازلت الزوجة عن هذا الحق، فقد تقدم على الخيانة!

أحنى رأسه بالارتباك:

- ليس الونس وحده ما أطلبه!

تطرقت جلسة قهوة السمان إلى ما يدور في غرف النوم .

اتجه أحمد جعفر إلى شوقي أبو حسين بنظرة متسائلة :

- لم نرك منذ يومين ؟

- زيارة إلى السيد البدوى .

قال أحمد جعفر :

- كأنك زرت قبر الرسول .

قال شكرى الطراوى :

- يطلب من البدوى إغاثته أمام الزوجة .

قال أحمد جعفر :

- لا تتكلموا أمام رجب فى هذه المسائل ، فلا شأن له بها !

واتجه إليه بنظرة مشفقة :

- أعرف أنه لم يعد لديك فى النساء ؟

من أين جاءته المعرفة ؟!

يؤله العجز عن الفضفضة عما بنفسه ، يبوح بما يعانيه ، يخشى الدهشة والاستغراب ، وربما الرفض . أصعب الأمور أن يعانى مشاعر العزلة وسط من يأنس لهم .

قال الطراوى :

- عليك أن تمشى جنب الحيط حتى لا يعتقلوا عريس الغفلة .

لاحظ أن الطراوى - بالقياس إلى عمره ، وجسده الممتلئ ، واللغد المتدلى إلى نهاية العنق ، والبطن الشبيه ببالونة ضخمة - سريع البديهة والحركة ، دائم التنقل بين الشاى والنرجيلة ، والنظرات المتلفتة ، والنداءات ، والأحاديث التى تبدأ ولا تنتهى .

اتجه أحمد جعفر ناحيته بنظرة متسائلة :

- حتى الآن لا نعرف لماذا تعدد اعتقالك ؟

قال رجب كيرة :

- لا أعرف ، ربما المشاركة فى إضراب أو مظاهرة ، وربما كلمة قلتها عفواً . ما يحيرنى أن تقيد حريتك ، ولو لساعات . من يفعل ذلك عليه أن يبلغك لماذا ، لماذا أخذك من بيتك ، وألقاك فى القلق والخوف ، ثم يطلق سراحك دون أن يجيب عن السؤال .

وبدا التأثر فى نبرة صوته:

- صعب أن يطالبوك بتذكر ما فعلت ؟

ولوى شفتيه مستهزئاً:

- كيف أتذكر أشياء لم تحدث ؟!

قال شوقى أبو حسين:

- ما أعرفه أنهم لا يقبضون إلا على المنضمين لتنظيمات .

وأشاح بيده:

- لا شأن لهم بمن يعبر عن رأيه .

قال أحمد جعفر :

- لو أنهم اعتقلوا كل صاحب رأى ، فسيصبح الشعب كله فى السجن !

لم يكن - حتى ذلك اليوم - يعانى الخوف ، ولا تصور أنه سيلتقيه ، دارت أحاديث المقهى حول اقتصار الملاحقة على من يدخل تنظيماً ، أما الذى يكتفى بإبداء الرأى ، أو حتى الشتم ، فذلك حق الجميع ، المرء الذى يعتقل لابد أن يكون مذنباً ، والذنب لا يصدر عن كلمات غاضبة ، أو منفعلة .

الاعتقال المفاجئ بدّل ما استقرت عليه نفسه .

بدا الأفق أمامه مليئاً بتوقعات الخطر .

فتحت مروة عينيها ، ربما لأنها أحست بحركة إلى جانب السرير .

حدجت رجب كيرة بنظرة متسائلة ، همست وهى تزيل من عينيها - بظهر يدها - تأثير النوم :

- كنت أتأملك وأنت نائمة .. جميلة وطيبة !

أعاد القول وهو ينهض :

- جميلة وطيبة !

كان يصحو على أذان الفجر من جامع سيدى عبد الرحمن القريب.

يجلس ـ لثوان ـ على طرف السرير، يكتفى بإحساس المتعة فى تأملها وهى مستلقية ، تغمض عينيها ، تتردد أنفاسها فى غطيط هادئ، شعرها الحنطى الناعم يصنع إطاراً ذهبياً حول وجهها .

لم يتوقع أن تكون مروة أماً لأبنائه ، لم يتصور أن تكون لهم ـ بسنها الصغيرة ـ فى مقام الأم . مرضها بالسكر جعل المتاح صعباً . لو أنه تردد فى طلب يدها ، ربما سبقه زكريا باحة فى عرض زواجها عليه ، لا يذكر المناسبة ، وإن تذكر ضحكة الرجل المفتعلة : اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك .

أهمل العبارة ، وجد فيها وصلاً بما تناولاه من كلمات . استعاد العبارة بكلمات الرجل المشجعة ، فى تلفتها بينه وبين الفتاة . بدت نحيلة الجسد ، شاحبة الوجه ، وإن لم تخل ملامحها من وسامة .

غاب تصور الملاحظات والملامح الغاضبة ، وجد الموافقة المسبقة فى تحريض راوية ، وفى كلمات سعيد عن مصاريف الزوجة ، وإن سكت لملاحظة سعيد ـ فاجأته ـ أنه ربما يظل مرتبطاً بامرأة مريضة طيلة عمره . قال مدحت وهو يعد كتبه ـ تأهباً للانتقال ـ فى صناديق كرتون وأكياس ، أحاطها بالدوبار:

ـ متعلمة ؟

رفع كتفيه:

ـ عرفت أنها توقفت عند الإعدادية ، هذا يكفى .

وافق على كتابة قائمة ، شرط أبيها الذى رفض مناقشته ، تزوج عنايات دون مهر ولا مؤخر صداق ولا قائمة . اشتريا حجرة الصالون من شارع توفيق . ظلت الصالة ـ لفترة طويلة ـ هى الموضع الوحيد الذى شغله الأثاث . خلت الحجرات الثلاث إلا من سرير سفرى ومكتب

معدنى صغير وشماعة ، اكتملت بقدوم الأبناء .

أصر زكريا باحة أن تتضمن القائمة ما كان بالشقة من أثاث ، حتى ما اشتراه فى زواجه الأول .

وهو يحاول الاحتفاظ بهدوئه:

- ربما لا نحتاج إلى قائمة .

أردف كأنه حزم أمره:

- فى الشقة ما يغنينا عن شراء الجديد .

قال زكريا باحة :

- من حق البنت أن تكون لها قائمة .

قال كيرة فى صوت فاتر:

- لا بأس بما هو موجود .

قال زكريا باحة فى لهجة مستطردة :

- القائمة من نسخة واحدة ، أحتفظ بها .

هز رجب كيرة رأسه بمعنى الموافقة .

تأمل تصرفاتها - فى أيام زواجهما الأولى - بعينى التوجس ، دارت ما بداخلها ، أو أن هذه هى طبيعتها .

تباينت مشاعره وهو ينزع عنها ملابسها . ظلت ساكنة ، صامتة ، تعينه بآلية ، لا رد فعل من أى نوع ، اتجهت نظراتها بعيداً .

حدس أنها تغالب الخجل . الشعر الناعم الطويل هو ما يثيره فى المرأة ، ذلك ما كانت عنايات تعرفه ، لا يذكر إن كان أومأ بما يحب ،

أم أنها عرفته من نفسها . حرصت - فى معظم الليالى - أن تغسل شعرها ، وتمشطه ، وتسدله على كتفيها . حين تسلل إليه الشيب صبغته بالحناء ، فظل على سواده ونعومته ، تهمل الأصابع ، تتخلله ، حتى بلوغ الرجفة .

شعر مروة الحنطى الناعم أغناه عن التذكير أو التلميح . جاست أصابعه فى الغابة الذهبية ، احتواه ملمس شعرها تماماً ، دفن وجهه فى اشتعال الحنطة ، سرى فى كل جسده ، دفع النشوة إلى عروقه الدقيقة ، غاب عنه الإحساس بالملائكية التى لا يتصور ملامستها ..

لم يجد فى كلماتها ولا تصرفاتها ما يشكو منه . سيدة فى بيته ، سيدة بيتها ، لا شأن لها بأبنائه إلا أن ترحب بأى منهم عند زيارة البيت .

أظهرت قدرة على القيام بأعمال البيت : الترتيب ، التنظيف ، الغسيل ، طهى الأكل . حتى قمصانه وجلابيبه كانت تكويها بيدها . وجد فيها عوضاً عن عنايات التى لم يتصور أنه يعيش بدونها ، حتى عن أبنائه فى غيابهم عن البيت .

بدا عرض الزواج من رجب كيرة طوق نجاة . لم يشغلها فارق السن ، ولا توقعات العلاقة بأبنائه ، ولا إن كانت ستصبح سيدة بيتها - كما قال أبوها - أو أنها لن تزيد عن خادم للعجوز كما حدثتها نفسها .

ما كان يضايق رجب كيرة ، ويؤلمه ، أن مروة تهمل إجراء التحاليل فى مواعيدها ، ولا تراعى ظروف المرض .

أهملت نصيحة الطبيب بأن تتجنب المجهود ، وتلتزم الراحة تماماً . وكان الإشفاق يتملك رجب كيرة وهو يرى الشحوب يسم وجهها ، كأن

المرض سرها الشخصى ، تحتفظ به داخلها ، لا تصارحه بما تعانيه .

ظل البريق فى عينيها البنيتين ، وإن لاحظ رجب - مشفقاً - تحاملها على نفسها ، يبين فى بطء الكلمات ، وتعبيرات اليدين ، والتنفس المشموع فى وجهها الشاحب .

تضغط بأسنانها على شفتها السفلى :

- لست مريضة إلى هذه الدرجة .

يغلبه الإشفاق وهو يرنو إليها : ماذا يخفى الجسد النحيل ؟ أين المرض فى داخله ؟ كيف يحدث تأثيراته القاسية ؟

فاجأته - ليلة - وهو يشاهد التليفزيون ، مالت على قدمه المتدلية ، وقبلتها .

هو يحبها ، يعرف أنها لا تحبه ، ما يحرص عليه ألا تكرهه .

يلاحظ شحوبها ، وتعثر الكلمات على شفتيها :

- ما بك ؟

تكتفى بالقول :

- لا شىء !

ألفا التردد على المستشفى الأميرى ، يستقلان الترام من أمام باب الجمرك ، ينزلان فى محطة الرمل ، يسبقها فى اختراق الميدان ، إلى شارع صفية زغلول ، يميل - تتبعه - إلى شارع كلية الطب ، الباب الحديدى الضخم فى نهايته ، يدخلان منه إلى العيادة الخارجية ، أو يصعدان إلى قسم الباطنة فى الطابق الأول ، تحيط بهما روائح الأدوية والمطهرات ، ومرضى يرتدون الملابس البيضاء ، وأطباء بمعاطفهم

المميزة والسماعات المدلاة على صدورهم ، وحكيمات ، وممرضات .

الحجرة بها سريران ، انشغلت الجالسة على السرير الملاصق للنافذة بأكل ما في الصينية المعدنية أمامها ، مروة نائمة على السرير القريب من الباب ، الأسلاك تصل بين جسدها والجهاز ذى المعنى الغامض جوار السرير .

تتعدد - في أوقات متقاربة - التحاليل والفحوص والتقارير والأشعة والأشعة المقطعية والموجات فوق الصوتية والرنين المغناطيسي .

ظل صامتاً لما علا صوت الشيخ الأباصيرى بالنصيحة :

- عجز الأطباء عن علاجها ، لماذا لا تلجأ إلى الطب النبوى ؟

وحمّل صوته نبرة تحريضية:

- فوائد الطب النبوى لن تجدها في أدوية الأطباء !

ثم وهو يعد بأصابعه :

- عندك العلاج بالقرآن والرقية الشرعية والأدعية المأثورة والماء المقروء عليه .

قال شوقى أبو حسين إن ما تعانيه مروة هو ابتلاء من الله ، تستطيع - بقوة إيمانها - أن تشفى - بإذن الله - أو تتطهر من ذنوبها .

نقل الطبيب نظراته بين رجب كيرة الواقف جواره، ومروة الممددة على سرير المستشفى:

- ابنتك ؟

جاوز ارتباكه :

- زوجتى .

قال الطبيب وهو يعيد دفتر الملاحظات إلى موضعه طرف السرير :

- تأثيرات السكر متعبة !

ابتسم لكلمات الأغنية المترامية من راديو الصالة :

كان عهدى وعهدك فى الهوا ..

يا نعيش سوا يا نموت سوا ..

أحلام، وطارت في الهوا ..

تركت مريض من غير دوا .

أحاطها بنظرة مشفقة:

- أظلمك لو تمنيت ما فى الأغنية ..

ثم وهو يتشرب ملامحها النورانية :

- أنا أكبر منك بكثير !

وأودع صوته نبرة متصعبة :

- أنا الآن أب لأربعة .

لاحت فى عينيها نظرة تأثر:

- الأعمار بيد الله !

ترنم عبد الحسيب مفتاح - فى قعدة السمان - بأغنية أم كلثوم :

عايزنا نرجع زى زمان .. قول للزمان يرجع يا زمان .

أدرك أن الرجل يقصده . أراد أن يعيب زواجه للمرة الثانية ، فلجأ إلى مقطع الأغنية .

اكتشف - بعد فوات الأوان - أن نوبة السكر استغرقتها . غالب شعوراً بالأسى ، لأنه غفل عنها . لم يفطن إلى دوره فى ملاحظة نوبات السكر ، تكررت حالات المغص والقيء [خطر له الجمل] والإسهال والصداع والإعياء وتنميل اليدين والقدمين وجفاف الحلق وفقدان الشهية وزغللة العينين والإغماء المفاجئ .

هل ماتت ساكنة ، أخذ النوم حياتها دون أن تصحو ، أو تتألم ، أو أنها استغاثت به وهو نائم إلى جوارها . اجتذبه النوم ، فلم يشعر بما تعانيه .

حين علا صراخها بالألم - لابد أن هذا هو ما حدث - لم تكن قد شكت ألماً ، ساعد ما تبقى من عافيته على حملها إلى سيارة سعيد .

قبل أن يبلغوا المستشفى كانت قد ماتت .

قال الطبيب ، وهو يسجل - فى ورقة مطبوعة - سبب الوفاة :

- هبوط فى الدورة الدموية .

رحيلها المفاجئ لم يتح له تلقينها الشهادتين ، وإدارة وجهها نحو القبلة ، تسكن أنفاسها فيسمِّل العينين .

عرض زكريا باحة أن تدفن مروة فى مقابر عائلته بالعامود . تنازل عن مطلبه لتمنى رجب كيرة أن يدفن إلى جوار زوجته بالمنارة .

أنهى سعيد كل الخطوات بنفسه : أحضر الحانوتى ، اشترى الكفن، فتح المقبرة ، استخرج شهادة الوفاة وتصريح الدفن .

ظل مدحت صامتاً ، ساكناً ، على كرسى أسفل البيت ، حتى موعد

الجنازة ، ينهض لمن يعرفه من المشيعين ، يتقبل العزاء ، ويعود إلى موضعه .

في الصباح التالي لأيام العزاء الثلاثة ، تذكر ورقة دسها زكريا باحة في جيبه . قربها من عينيه : القائمة .

الماعون طيب !

عادت زياراته لمقابر المنارة إلى الإيقاع الذي كانت عليه بعد وفاة عنايات . يذهب بمفرده ، في الكيس البلاستيك بلح ناشف وأقراص ومنين ، يقضي ساعتين أو أقل ، ويعود . يدفعه انفراده بالزيارة إلى اختزالها .

وهو يمضي - ذات ضحى - في اتجاه الميدان الصغير ، قبالة أسوار المدافن ، واجه جنازة قادمة . تنحى إلى جانب الطريق ، مد إصبعه بالتوحيد ، وقرأ الشهادتين ، وردد : إنا لله وإنا إليه راجعون .

تنبه أنه وحيد . خلت الشقة إلا منه ، رحلت الثانية مثلما رحلت الأولى ، طبيعة الأمور أن يسبقهما في الرحيل . كانت عنايات تصغره بثماني سنوات ، ومروة تصغره بأكثر من ثلاثين عاماً .

ضاق بالفراغ الذي تركه رحيل مروة . لم يتصور أنه سيعود إلى حياة الناس . يجلس في المقهى ، يتردد على الجامع ، ينضم إلى حلقة الذكر ، يشترى حاجاته من شارع الميدان . امتصت وقته ربما بأكثر مما فعلته عنايات في حياته .

اطمأن إلى قول الطراوى :

- ما أعرفه أن الموت ليس نهاية ، لكنه بوابة إلى حياة أخرى ، ينعم فيها البعض بالجنة ، ويواجه البعض جزاء أفعاله ، والمرحومة - بإذن الله - من كلامك عنها ، مثواها الجنة .

لم يكتم نظرته الغاضبة ، حين عزّاه أحمد جعفر بالقول :

- ادع الله أن يبدلك خيراً منها !

يبدلنى خيراً منها ؟!..

هل يعنى الرجل ما يقول ، أو أنها كلمات سخيفة ، أراد بها التعزية؟!

تعدل جلسته فى الشرفة المطلة - من الجانب - على خليج الأنفوشى، ثم تخلو إلى الشقة ، تكنس ، وتمسح ، وتغسل ، يلجآن إلى رفع الصوت فى تبادل الأحاديث الخاطفة .

واجهة الشرفة تطل على شارع شيمى بك، اسم صاحب المطحن فى الشارع الجانبى. الطابق الأرضى مغلق ، يتوسطه باب يفضى إلى الطوابق الثلاثة العليا ، الشرفة الحديدية تطل - من الجانب - على سينما الأنفوشى المغلقة من زمن ، وعلى طريق الكورنيش ، والبحر ، والكبائن الخشبية المتلاصقة فوق الرمال .

أكبر أبناء الشيخ الأباصيرى منسى انتقل إلى باكوس ، مثّل خلو الشقة دافعاً لزواج الشيخ.

نسمات البحر تحمل رائحة الرطوبة . أغرق الصهد المرئيات فى السراب ، علا أمامه متماوجاً . الأبخرة الرطبة تحجب أفق البحر ، ابتلعته تماماً ، ونوارس بيضاء تحوم فوق الساحل ، وثمة ولد تمدد على ظهر فلوكة مقلوبة على وجهها ، توسطت البحر والشاطئ الرملى ، يضرب المياه التى يحملها المد بيديه ، فيتناثر الرذاذ .

أشار إلى قدميها الحافيتين :

- ألا تخشين أن تدوسى على ما يؤذى قدميك ؟!

وهى تعيد كرسياً من فوق الطاولة إلى الأرض :

- المرحومة مروة هى التى قتلها السكر .

لم يتصور أن الأمر ينتهى إلى ما انتهى إليه .

تشابكت أصابع يديها ، أسندتها إلى حجرها ، وأخفضت الرأس فى تهيؤ للإنصات .

أغمض عينيه، كمن يحاول استيعاب ما ينوى قوله:

- مروة .. زوجتى الثانية ، هى إذن ليست أمك !

هزت رأسها:

- أعرف !

- مضى عليها معى أكثر من عشرين سنة .

خمن انفعالها من اختلاج فتحتى أنفها:

- هل تريد أن تتنازل لها عن أموالك ؟.. أوافق !

- كأنى أترك مالاً بالفعل ؟!.. المعاش من حقها .

حدجها بنظرة مستاءة:

- هل تترك الشقة ؟

- وماله ؟.. شرع الله !

تعدين للأمر إذن ، تضربين وتقسمين وتطرحين وتجمعين ، تحسبين

كل شيء ، وإن تظاهرت بأن الأمر لا يشغلك !

- تترك الشقة ؟

- إن أرادت البقاء ، تشترى !

تدافعت الكلمات إلى حلقه ، لكنه - لا يدرى لم - ظل صامتاً .

وعكس صوتها توتراً:

- شرع الله !

أكلمك فى ما تصورت أنه أبعد ما يكون عن تفكيرك ، ما استقر فى داخلى من أنك لا تعبئين إلا بأن تكونى ابنة طيبة .

رنا إليها بنظرة متأملة : كأنها منسوخة من أمها ، القامة القصيرة، الممتلئة ، البشرة القمحية ، العينين السوداوين ، الأنف المتكور ، الشعر الأسود تبين ذؤاباته خلف الحجاب ، رفعته حتى ارتفاع جبهتها العريضة . حتى التصرفات والإشارات والإيماءات ، هى ما اعتاده فى عنايات ، حتى نبرات صوتها تذكره بالزوجة الراحلة .

الميراث ، التركة ، الوصية ، الأنصبة ، الشرع ، كلمات لم يكن يتصور أنها تدخل حياته باعتباره ميتاً ، أو أنه سيموت .

يفتش فى الوجوه عن أصداء التعبيرات والآراء .

تروعه حيدة النظرات ، خلت الملامح من المشاعر التى يمكن أن يفسرها ، لا تأثر ، ولا حزن ، ولا لهفة ، تتقافز الكلمات والتعبيرات فى تلقائية ، كأن الذى يناقشون ما بعد رحيله إنسان آخر .

أزعجه تعبير شكرى الطراوى أن الوصية يجب أن تعلن عقب الدفن. هو الذى يدفن .

وشى صوته بعصبية :

- قبل رحيلها ، أخذت أمك كل شىء !

أضاف فى نبرة متباطئة:

- أسلم المرض أمكما للموت بعد أن أخذ كل ما ادخرناه على علاجها .

اتسعت عيناها بالضيق:

- يا بابا .. ذلك الموضوع القديم !

وهو يربت ركبته:

- نحن نعيش تأثيراته !

نصحته بالزواج ، وإن لم يخطر فى بالها أنه سيعمل بنصيحتها . رحيل مروة المفاجئ فرض النهاية التى لم يتوقعها أحد .

قام من موضعه ، واتجه إلى الدخل . أشار لها كى تغلق النافذة :

- أشعر بالبرد، لم يكن هذا يحدث من قبل .

دون أن تنظر ناحيته:

- السن !

ثنى إليها ملامح غاضبة :

- ما شأن السن فى شعورى بالبرد ؟

ران على نبرة صوته ارتباك ، كمن يعوض تأثير الكلمات :

- أنا - كما تعلمين - خريفى الهوى ..الخريف هو الفصل الوحيد الذى يعتدل فيه الجو.

رنت إليه بإيماءة متخابثة:

ـ وبقية الفصول ؟

ـ الشتاء برد ، والصيف حر ، والربيع تسمية على غير مسمى .. زعابيب وتراب وخماسين !

قال ليبدل مجرى الحديث :

ـ في محلات سعد زغلول أوكازيونات هائلة .

وهي تمسد شعرها إلى الخلف:

ـ اشتريت ؟

ملأت وجهه ابتسامة:

ـ كنت أنظر بعينيك .

شوحت بأطراف أصابعها :

ـ سوق النصر أرخص .

أضافت مستدركة:

ـ فرصة لشراء ما أحتاجه من زنقة الستات .

تقاطعت نظراتهما:

ـ معاشي أصرف أقله لأدخر لكم .

ثم وهو يغالب تأثره:

ـ طبيعي أن أموت قبلك ، طبيعي بالتالي أن أطمئن إلى استقرار حياتك بعد رحيلي !

ومسح زاوية عينه بمنديل ورقى:

- إذا كان وقتى قد سمح لى بالمزيد فلكى أطمئن عليك .

وهى تدعك أنفها بظهر يدها :

- لماذا ؟.. ظروفنا طيبة .

وعدت بأصابعها :

- سعيد زاد نشاطه التجارى ، ومرتب مدحت يضمن عدم حاجته ، وأنا متزوجة !

وربتت كتفه :

- بابا ، لا تبخل على نفسك !

اختلطت الكلمات فى ذهنه ، وتشوشت ، لم يستطع التعبير عن معنى محدد ، فلاذ بالصمت .

يؤلمه الشعور أنه بلا فائدة ، ولا معنى لوجوده. أشد ما يؤلمه هذا الشعور ، حين تعرفه المصادفة إلى تصرف أحد أبنائه ، يفاجأ بما حدث ، كأنهم لا يفطنون إلى وجوده فى حياتهم ، يفكر فى أن يعتب ، أو يلوم ، ثم يكتم شعوره بالألم فى نفسه .

لمحت برصاً يتحرك أعلى الجدار ، يزحف ، ثم يتوقف ، ثم يواصل الزحف .

علا صوته بالضيق لما حاولت ضرب البرص بالشبشب .

حملقت بنظرة مستغربة:

- يشم الأكل !

- كلام فارغ ، البرص يأكل الحشرات .. يريح البيت منها !

لا يذكر متى فاتحه الشيخ الأباصيرى منسى بالزواج من راوية . شغله الذكر وتلاوة القرآن والابتهالات والتسبيحات . حين وافق الشيخ أن يستكملا - عقب صلاة العشاء - ما بدآه فى أبو العباس مع آخرين ، كانت راوية تكتفى بالنقر على الباب ، يأخذ منها الصينية ، فوقها فناجين القهوة أو أكواب الشاى .

لا يدرى إن كان الشيخ الأباصيرى رآها ، أم أنه فاتحه فى الزواج منها لأنها ابنته . لكن الشيخ ألح فى اعتزازه بالمصاهرة .

سماه الشيخ لاستغراقه فى شعائر الدين : فرائضه وسننه وما يتصل بها من أذكار وإنشاد وتسابيح وابتهالات ودروس وعظ .

ظلا زميلين فى إدارة التفتيش بهيئة النقل العام ، حتى سبقه الشيخ إلى المعاش بعامين . تواصلت صداقتهما - عمقتها المصاهرة - فى أبو العباس وجوامع الحى وحلقات الذكر على رصيف البوصيرى .

تكلم أبوها عن رغبة الشيخ فى زواجها .

لم يشر - فى البداية - إلى أن الرجل متزوج ، وله أبناء . كتمت ألمها لموافقة أبيها على زواجها من رجل يكبرها بسنوات كثيرة . استقر فى بالها الوجه النحيل ، والوجنتان البارزتان ، والعينان الغائرتان ، وحزمتا الشعر - يختلط فيهما السواد والبياض - تطلان من المنخارين ، والذقن الشعثاء ، والأصابع الدائرة بحبات المسبحة .

لم يمثل الأباصيرى حلمها . وجدت الحلم فى ضابط بحري ، يسير - كل صباح - أمام البيت ، فى طريقه إلى الميناء .. جار يطل - وقت

العصر - من النافذة المقابلة .. الأستاذ عبد الولى مدرس الفصل ، بقامته الطويلة ، وعينيه البنيتين ، وبشرته السمراء ، وحرصه على البدلة الكاملة .. شاب تمنت أن تكون له ، حين رأته - مرة وحيدة - فى ترام رقم خمسة .. عبد الحليم حافظ الذى حلمت به - رغم موته - يطلب يدها .

انتظر رجب كيرة حتى انصرف المصلون من صلاة العشاء بأبو العباس . استأذن فى الدخول على الشيخ حامد رمضان إمام الجامع . سأل عن عرض الأباصيرى بأن تكون راوية هى زوجته الثانية ، هل يسيء إلى أم أولاده ؟

قال الإمام :

- التعددية أساس التشريع .

وأفسح ما بين يديه :

- تعدد الزوجات مجمع على جوازه ، ولا يجوز إنكاره !

ثم وهو يضغط على الكلمات:

- إنه أمر مباح شرعاً شريطة أن يكون الرجل قادراً عليه .

زكى الإمام عرض الأباصيرى منسى بما عرف عنه من الزهد ، وحسن السيرة ، سكنت نفس الإمام إليه ، وآثره على سواه من المريدين ، حفظه الله فى نفسه وأقواله وأفعاله وأحواله ، يسير إلى الله حاملاً زاد التقوى والطاعة ، يحرص على الوقوف عند حد الله لعباده ، ولا يغضب بنفسه ، إنما يغضب بالحق . صار قدوة للآلاف من أتباع الشاذلية ، ومريدى المرسى أبو العباس .

لم يجد رجب كيرة سبباً لرفض الشيخ، لا سبب ظاهرياً بالرفض، هو رجل : إذا كان يكبر راوية بسنوات ، فإن السيدة خديجة كانت تكبر الرسول بسنوات ، وهى سيدة .

قال مدحت :

- لماذا لا تتزوج شاباً فى سنّها !

قال الأب :

- ضعفت فرصتها بعد أن تجاوزت الخامسة والثلاثين !

لم توافق راوية ، ولم ترفض . ظلت صامتة ، ساكنة الملامح .

قال شكرى الطراوى لملاحظته :

- السكوت علامة الرضا .

وجد فى المعنى ما يدفعه إلى الموافقة .

ظلت راوية على صمتها ، نزلت - مع جارات - إلى شارع الميدان وزنقة الستات والسبع بنات والعطارين ، تقتنى شوارها .

بدا الزواج حلاً لهاجس تملكها ، الأفق ملبد بالغيوم الداكنة ، ماذا لو مات أبوها ؟ هل تعيش بمفردها ؟ هل تنتقل إلى بيت مدحت أو سعيد ؟

اطمأن رجب كيرة إلى قول الشيخ الأباصيرى إنه كان سيتزوج ثانية على زوجته ، راوية أو فتاة أخرى .

قبل موعد القران بثلاثة أيام ، همست راوية بما يشغلها : هل يمنعها الشيخ من العمل ؟ هل يلزمها البقاء فى البيت ؟

نقل رجب كيرة تخوف ابنته إلى الأباصيرى .

حسم الشيخ قلقه بالقول :

- أريد زوجة لا خادمة !

ثم فى لهجة تأكيد:

- حصلت على شهادة ، من حقها أن تعمل بها .

تبدلت تصرفات الأباصيرى منذ أدى فريضة الحج . ندم على ما فعل فى شبابه . لم يتطرق إلى طبيعة ما فعل ، ولا تحدث عن ماضى حياته . اكتفى بالقول إنه اطمأن إلى تذوق ألم الطاعة ، مثلما تذوق - من قبل - حلاوة المعصية ، لم يتحدث عن المعصية التى قال إنه تذوقها، وإن أشار إلى أنه لم يصادف كبيرة إلا ارتكبها ، عرف ما لم يكن يعرفه من المطاعم والمشارب والمناكح واللذات التى لا حصر لها .

توالت الأيام، يروى ما جرى منذ استقل الطائرة إلى جدة . شرب ماء زمزم ، السعى بين الصفا والمروة ، الطواف حول الكعبة ، تقبيل الحجر الأسود ، تقبيل الأرض حول البيت الحرام ، صعود عرفات ، ملامسة قبر الرسول .

أظهر رجب كيرة اعتزازه بالكفن المطهر الذى اشتراه له الشيخ من مكة، أهدى راوية زجاجة صغيرة ، قال إنها من ماء زمزم .

استبدل بالبدلة جلباباً أبيض من البوبلين ، وبالحذاء خفاً مغربياً ، وأطلق لحيته بعد أن كانت قصيرة ، مشذبة ، ولم تعد المسبحة تفارق يده إلا ساعة النوم ، استعاذ بالله من كل ما يشغله عنه ، ولازم الصلوات فى جوامع الحى وزواياه ، وصلاة الجمعة فى أبوالعباس .

زهد فى الدنيا ، آثر الآخرة عليها ، عكف على العبادة تماماً ، انقطع من كل شيء سوى الله ، يرفع الأذان - بصوته - فى جامع سيدى نصر الدين ، يتردد - غالبية الأوقات - على جوامع الحى ، يزور الأضرحة والمقامات والزوايا ، يشارك فى الجلوات وحلقات الذكر ، لا يتكلم إلا فى أمور الدين ، يحرض الجيران على الوضوء والصلاة ، يحث النساء على ارتداء الحجاب ، يكثر من أحاديث عذاب القبر وحساب الملكين والصراط والبعث والنشر والجن والملائكة والجنة والنار والشفاعة العظمى . ربما أذن له إمام زاوية خطاب ، على ناصية المسافرخانة . يلقى - بدلاً منه - خطبة الجمعة ، يلجأ إلى قراءاته فى كتب الدين .

لم يعد يسلم جسده إلى النوم ، قبل أن يتلو آيات من القرآن ، وأدعية ، ويردد الشهادتين ، يخشى أن يأتيه الموت فى نومه ، يوقظه التقاء رفع الأذان من الجوامع القريبة ، ينزل من البيت - فى عز البرد - لأداء الصلاة جماعة فى المسجد ، تترامى بسملاته وحوقلاته ودعواته ووقع القبقاب بين الحمام والصالة ، يستبدل به الخف المغربى فى الخروج إلى الجامع . إذا صلى فى البيت ، فإنه يطيل الصلاة ، يحرص على التطويل للركوع والسجود ، وشدّة الخشوع .

طلب من الشيخ سرور أبو الليف إمام جامع سيدى عبد الرحمن ، أن يدله على الطريق التى ينبغى أن يسلكها ، يرقى فيها المقامات والأحوال ، ينتهى إلى المعرفة الحقيقية لكل ما غمض عنه .

قال أبو الليف فى لهجة مستغربة :

- هل الصوفية شرط الإسلام ؟!

صار أكثر إقبالاً على طقوس الدين ، زاد من النوافل والأعمال الصالحة ، تملكته حالة الشوق والوجد والفناء والذهول والاستغراق . تكونت حوله جماعات من المترددين على حلقات الذكر ، يجدون الخير في ميله إلى النسك والزهد والتقشف والورع والاعتكاف والتهجد والتوكل .

تقاطر الناس على مجلسه في جامع سيدي عبد الرحمن ، يلتمسون مشورته ، ينصتون إلى آرائه ونصائحه ، تصدر عن فهم لتعاليم الدين، ما يجب وما لا يجب أن يسيّروا به أمور حياتهم .

لما بلغ حسن عامه الثالث ، لمحت بفكرة نزولها إلى العمل .

قطع تلاوته من المصحف الصغير :

- المرأة تعمل لتساعد زوجها في الإنفاق .

رماها بنظرة مؤنبة :

- هل طلبت منك مساعدتي ؟!

لم يبدِ موافقته على أن تزور أباها وأخويها ، مرة ومرتين في الأسبوع ، يصحبها من تذهب لزيارته ، أو يبعث من يطمئن إليه .

ما تعيشه ليس هو ما كانت تحلم به ، ما تصورته حياتها الزوجية . لاحظت على أبيها انشغاله بالطريقة ، لم تتصور أن تدخل الطريقة حياتها : الذكر والإنشاد والتسابيح والأوامر والنواهي والمحظورات .

تمنت - وهي تطل على الخليج - لو أنها مضت إلى الشاطئ ، قذفت بالشبشب من قدميها ، وسارت حافية إلى داخل الموج ، لا تنشغل بالعودة حتى تغمرها المياه .

اختار موقعاً منعزلاً فى مقهى السمان ، طاولة صغيرة تطل نافذتها على الشارع الخلفى ، بعيداً عن الواجهة ، مفترق طريق الكورنيش وشارع إسماعيل صبرى . لم يعد يقسم أوقات جلوسه على المقهى ما بين الداخل فى الشتاء ، وعلى الرصيف الخارجى حينما يكون الجو دافئاً . صخب المقهى يمنعه من التركيز فى ما يشغله ، عزلته تمنحه الصفاء ، والتأمل ، والقدرة على التفكير .

يأتى عقب صلاة العشاء ، وينصرف فى العاشرة تماماً . يسند رأسه إلى زاوية الجدار ، يرى القادمين والخارجين من الباب المفضى إلى طريق الكورنيش ، يحجبه عمود الزاوية جوار الشارع الجانبى ، يحرص أن يكون وحيداً ، يبتعد عن نظرات الناس - حتى لو كانوا يعرفونه - وعن أسئلتهم ، ومناقشاتهم ، وملاحظاتهم التى تضايقه .

غابت عن جلسة المقهى مشاعر الود والصداقة والمؤانسة ، كلمات لا رابط بينها ، مجرد ثرثرات تبدأ ولا تنتهى ، يغيظه اقتحام حياته بالأسئلة والملاحظات والغمز واللمز والهزار السخيف .

بدا جلساء المقهى - فى نظره - ركاب قطار ، تبادل معهم حوارات ودية ، أخذ منهم وأعطى ، ربما فض ما بنفسه من أسرار ، لكن نزوله فى المحطة التى يقصدها أسدل النسيان على الصداقة الطارئة ، تغيب قسماتها فى ظروف حياته .

أصدقاؤه إما سافروا إلى الخليج ، أو وجدوا فى عمليات التخليص بالدائرة الجمركية ما يبدل حياتهم ، أو انشغلوا بالتردد على حلقات

الذكر ، أو صالحوا المجهول بالانضمام إلى الطرق الصوفية . ثمة أصدقاء اختفوا ، لا يعرف أين ذهبوا ، وإن تبين ـ بالمصادفة ـ غيابهم عن حياته .

تفاقم إحساسه بالوحدة .

إذا كان سيتاح له البقاء ـ فترة تطول أو تقصر ـ فى هذه الدنيا ، فإنه لا يتصور الانتظار السخيف يوماً واحداً ، متصلاً .

الانتظار أقسى ما يعيشه المرء ، انتظار ما يعرفه ، وإن كان يصعب رسم ملامحه ، يعرف معناه ، لكنه لا يتصور أنه يعيش أيامه فيه ، إذا لم يأت اليوم فقد يأتى غداً ، يتهيأ للقائه قبل النوم بقراءة الفاتحة والمعوذتين وبعض الأدعية ، يتوقعه فى الأعراض المفاجئة : سعال ، حرارة مرتفعة ، غثيان ، زغللة فى العين ، همود . حتى ذاكرته لم تعد كما كانت من قبل ، ينسى الأسماء والأماكن والأرقام ، يلجأ إلى إغماض عينيه ، أو الضغط على جبهته بإصبعيه ، أو القول بنبرة معتذرة : نسيت . يداخله ما يشبه اليقين أن المعنى الوحيد لحياته الآن هو الانتظار .

ـ الانتظار هو أسوأ ما فى المعاش . أنت تقف على ما يشبه الصراط بين الحياة والموت .

علا صوت أحمد جعفر بلهجة مداعبة :

ـ رجب كيرة يبدأ قراءته للأهرام بصفحة الوفيات ..

وضرب ركبته بيده :

ـ يتوقع خبر وفاته !

واتجه إليه بملامح جادة :

- انس تاريخ ميلادك ، وتذكر اللحظة التى تعيشها .

قال الطراوى :

- عندما يشغلنى التوقع فأنا ميت بين الأحياء .

قال رجب كيرة :

- الشيخوخة مرض يصيب كل البشر ، والموت نهاية كل البشر . نحن الآن على حافة الشيخوخة ، والموت !

رسم أحمد جعفر ابتسامة باردة:

- أنا لا أخاف .

ثم وهو يتحسس ذقنه :

- إذا لم تخف الموت ، فلن تواجه ما يخيفك .

قال الطراوى وهو يعيد النارجيلة إلى موضعها :

- الموت طريق وحيدة معلومة النهاية .

وسرى التهدج فى صوته:

- لا أحد يموت قبل أن يحين موعده !

قال شوقى أبو حسين :

- طبيعى أن نتكلم عن الموت ونحن على قيد الحياة ، أما بعد الموت فإننا نصمت .

ما الموت ؟ ما سره ؟ ما المصير بعد أن يغسّل المرء ، ويكفّن ،

ويوسد التراب ؟ ما حقيقة حساب القبر ؟ هل يحاسب بالفعل ؟ وهل يردد ما يلقن أم يلجمه الخوف ؟ هل هناك ثواب وعقاب ، جنة ونار ؟

ما معنى أن يرحل الآباء ليبقى الأبناء ، ثم يرحل الأبناء - بعد أن يصبحوا آباء - عن أبنائهم ؟

ماذا يستطيع أن يقدم لأبنائه ، وهو غير قادر على فهم ما يعانيه ؟

هل كان يتبدّل اهتمامه لو أنه لم يبلغ سن المعاش ؟ أو لو أنه انشغل بما يمتص وقته ؟ هل كان اقتصاره على رعاية أبنائه سيظل هو المعنى المتاح ؟

تناهى صوت الطراوى :

- نحن نستطيع أن نتكلم عن مستقبل أبنائنا ..

استطرد فى لهجة رافضة :

- لكن أعمارنا تجعل الحديث عن مستقبلنا الشخصى سذاجة غير مقبولة .

همس رجب كيرة كأنه يحدث نفسه :

- الوحدة أقسى ما فى الشيخوخة.

ورحلت نظراته إلى بعيد:

- ما أتمناه ألا أموت بالشيخوخة .. للشيخوخة متاعبها !

اجتذبته العينان المحرضتان للمرأة التى جلست - بمفردها - فى الكرسى الملاصق للباب من الناحية المقابلة .

فكر فى أن يصحبها إلى البيت ، يسبقها إليه فتتبعه . شجعه خلو

الشقة فلا أحد يتردد عليه ، وسكان الشقة المجاورة يعيشون فى الخليج . تقافزت الكلمات فى خاطره ، تصنع تعبيرات لم يسبق له نطقها . لكن صدى الخوف من المجهول ، وما يصعب تصوره ، يلاحظ تقدم سنه فى ملامح أصدقائه وجلساء المقهى، لن يشيخوا بينما تظل عافيته، لا يعرف كيف يتبدل الحال.

يعروه ملل لا يدرى أسبابه ، يغالب التثاؤب وإغماض العين ، يشرد فى ما حوله ، يدير الراديو ، ويطفئه ، يمضى إلى الشرفة يطل منها على لا شيء ، يعود ، يلوذ بالسرير ، ربما ينسيه النوم كل ما يعانيه .

لا يدرى متى أزمع أن يحقق لأبنائه ما لم يحققه لنفسه قبل أن تقارب المغادرة ، يعيد النظر فى أحوالهم ، يتعرف إلى المشكلات ، يفك ما يرى أنها تشابكات ، يتدبر الحلول الممكنة .

كيف يتصرف ؟ كيف يواجه المشكلات ، ويحاول التوقع ؟

بدت الأيام ممتدة أمامه ، لا يدرى ماذا يصنع بها ، يصعب عليه أن ينغمس فى الطريقة كما فعل الشيخ الأباصيرى ، جلسات مقهى السمان قد تسليه ، وقد تؤلمه بالملاحظات التى يرفضها .

تركزت مشكلات أبنائه - دون أن يدرى - فى نفسه . أبناؤه مسئوليته ، شعور استقر فى داخله ، وإن يحزنه الصمت عن آرائه ونصائحه وتحذيراته ، لا يعرضون عليه ما يواجهون من مشكلات ، ولا يطلبون مشورته .

لم يكن الأمر - ربما - يشغله بهذه الكيفية ، قبل أن ترحل الزوجتان. هل هو الفراغ الذى أحاط حياته ؟ هل هى الرغبة فى الخروج من مشاعر الوحدة ؟

مال من باب أبوالعباس ناحية الميناء الشرقية ، نظر إلى ناحيتى شارع محمد كريم قبل أن يعبر قضبان الترام . فى زاوية التقاء الشارع بشارع سيدى خليفة ، رنا بعينيه إلى الطابق الثانى على اليمين ، فى البيت ذى الطوابق الخمسة ، بشبابيكه العالية ، والمقرنصات المحيطة بالأفاريز ، والشرفات المطلة على تقاطعات الطرق، فى المواجهة - من زاوية الشرفة - نهايات مرسى القوارب ، يسار الميناء الشرقية .

يميل إلى قضاء وقت بعد صلاة العصر فى صحن أبو العباس . يتجه إلى الفراغ بعينين غير منتبهتين ، أو يسحب من المكتبة الصغيرة، جوار المنبر ، مصحفاً يقرأ آياته .

يأخذ على نفسه تشككها فى عدد الركعات أو السجدات ، يستعيذ بالله من الشيطان ، ويكبر للصلاة . يلجأ - صرفاً للخطر - إلى أداء الصلاة جماعة .

من يلجأ إلى مقام المرسى ، يطلب المدد والشفاعة والنصفة ، يستجيب الله بشفاعة صاحب المقام ، يفرج ضائقته ، ويقضى حاجته .

أقلقه دوار يقتحم رأسه على فترات متباعدة ، يدفعه للاستناد إلى ما بجواره . كتم مشاعره ، فلا تنصحه راوية ، راوية بالتحديد ، إلى عرض نفسه على طبيب . يفضل أن يحيا ما تبقى من العمر دون أن يعرف طبيعة المرض الذى سيمضى به إلى النهاية ، ما ينتظره فى لحظة ما ، فى موضع ما .

لماذا لا يواصل السير دون أن يشغله التوقع ؟

حرص أن يكتفى بأوقات بعد الظهر فى الخروج من البيت .

يؤدى صلاة العصر فى أبو العباس ، ينضم إلى الحلقات الدائرية على رصيف البوصيرى ، تهتز الرءوس ، تتمايل الأجساد ، ترتفع الأصوات بالذكر والإنشاد والأدعية ، حتى يؤذن لصلاة المغرب ، ينشغل بعدها فى قراءات وتلاوات وتشكيل نصف دائرة حول الإمام فى درس المغرب . يهبط درجات الجامع ـ عقب صلاة العشاء ـ إلى الميدان . يميل إلى اليسار فى الطريق إلى أبو وردة .

ربما فضل السير مباشرة فى طريق الكورنيش ، يجالس أصدقاء مقهى السمان ، ساعة أو نحوها ، ويعود إلى البيت من الطريق نفسه .

لاحظ فى نفسه رفض الخسارة فى أى حوار ، حتى لو ناقش مشكلة تافهة ، ما كان يهمله من قبل لم يعد يصمت فيه عن الأخذ والرد ، حتى تنتصر وجهة نظره ، لاحظ عدوانية ليست من طبعه ، يغضب لأقل سبب . يعلو صوته بلا مناسبة ، يوبخ ، يؤنب ، يشتم ، قد يستخدم ألفاظاً كان يتأذى لسماعها من جلساء المقهى ، ينهر ماسحى الأحذية والباعة المتجولين والمتسولين ، يضايقه محاولة تذكر أشياء ، لكن ذاكرته لا تسعفه . لما سقطت حبات الأرز على صدره ، أسرعت راوية بفوطة صغيرة ، دست طرفها فى فتحة قميصه، تابع تصرفها ـ متألماً ـ وإن ترك الفوطة فى موضعها ، فلا يؤلم راوية . يحزنه تبقى قطرات بعد التبول ، يتحسس أثرها إن جاوز سرواله الداخلى إلى البنطلون . أحزنه أنه حاول كتم سعلة ، فشعر بتساقط البول من بين فخذيه ، تنبه إلى تنقله ـ ذات مساء ـ بلا هدف ، بين الصالة والحجرات الثلاث ، هل هو الضيق ، أو الملل ، أو أنه عارض يجب تحرّى بواعثه ؟ هل هو تأثير الشيخوخة ؟

حين يمرض، يقرأ الآيات السبع المنجيات من القرآن ، فيأتيه

الشفاء، ويسترد عافيته . ربما أخفى ما يشعر به من صداع أو حموضة أو شعور بالتعب ، لا يشكو ، ولا يطلب دواء ، يتظاهر بالعافية، فلا يثير قلق راوية ، أو خوفها .

عرف أن حياته ـ ولو بإيقاع الملل ـ لن تظل فى صورتها الحالية ، النذر المتقاربة تنبئ بمتاعب تغيب ملامحها .

فضل ـ هذه المرة ـ أن يزور بيت مدحت بدلاً من الذهاب إلى بيته فى شارع أبو وردة.

البسمة الصامتة اعتادها فى وجه مدحت .

سبقه إلى الحجرة المطلة على الواجهة :

ـ حجرة المكتبة بَحْرية !

كان الجو محملاً برائحة البحر ، لا يراه وإن ميز الرائحة فى أذنه ، ارتفاع البيوت المقابلة ، لا يتيح رؤية البحر إلا من شارع سيدى خليفة. تسهل له زاوية الشرفة رؤية طريق الكورنيش ، وامتداده ما بين السلسلة وقلعة قايتباى ، وانحناءة الشارع إلى خليج الأنفوشى ورأس التين .

امتلأت الشقة بالكتب والصحف والأوراق حتى أخفت الأثاث . على الأرض ، وفوق المكتب الخشبى القديم . أخلى مساحة محدودة من زاوية الصالة لمقاعد تسع ثلاثة أشخاص ، وطاولات صغيرة فوقها كاسيتات واسطوانات كمبيوتر . على الجدران صور فوتوغرافية لأماكن من الإسكندرية فى سنوات بعيدة .

هو الذى نصح مدحت أن ينتقل إلى هذه الشقة . عانى الجميع صعوبة التنقل بين رصات الكتب ، فى الشقة ذات الصالة والحجرات

الثلاث . وجد مدحت فى موضع الشقة ما يتيح له التطلع إلى البحر، دون أن يعانى زحام المرور فى شارع الكورنيش.

قال فى لهجة مداعبة :

ـ بيتنا الآن من ورق !

أضاف باللهجة نفسها :

ـ كتبك ملأت البيت ، يتخللها الأثاث !

تنبه إلى القراءة من مكتبة أبيه ، وردوده على ما يوجهه له من أسئلة. لم يعد يكتفى بما فى البيت ، اشترى ، واستعار ، وكون صداقات مع باعة النبى دانيال ، وتردد على مكتبة البلدية بشارع منشة.

أخذته القراءة ، تضاءلت مكتبة البيت فى نفسه . لم يعد يتابع مناقشات أبيه وأصدقائه ، تغيظه الآراء التى تعيد ما سبق قوله ، أهمل النزول ـ خلف الأب ـ لصلاة الجمعة فى مسجد سيدى عبد الرحمن .

سعى رجب كيرة حتى عين مدحت فى الوظيفة التى تركها إلى المعاش . مؤهله دبلوم التجارة فى وظيفة مفتش بشركة الترام ، شغلها مدحت بليسانس الحقوق .

وهو يتأمل الكتب المكدسة :

ـ هل لديك كتاب فى الدين ؟

رنا إليه بنظرة متسائلة :

ـ أعرف أن قراءاتك فى السياسة ؟!

التمعت فى عينيه نظرة حزينة:

ـ لم أعد أقرأ الصحف كثيراً ، لكن ما أقرؤه يدل على أن انفساد صار وتد حياتنا !

وأسلم نفسه لشرود :

ـ ما حدث فى ٦٧ جعلنى أعيد النظر فى مسلمات كثيرة .

وزفر فى ضيق:

ـ الهزيمة المذهلة نبهتنى إلى ما لم أكن أتصوره !

ثم وهو يحاول الحفاظ على هدوء نبرته:

ـ عرفت أن الخراب لحق كل شيء !

قال مدحت :

ـ هل تندم على أيام السياسة والاعتقال ؟

كأنه ضغط على زر . تكلم الأب وتكلم ، روى أشياء كثيرة ، تناثرت تعبيرات الظلم ، والعدالة الاجتماعية ، وحقوق الناس ، وفساد القصر، وأحزاب الأقلية ، والقاعدة البريطانية فى القناة ، ويسقط فيفى وحافظ عفيفى ، وخرجت الطهارة من بيت الدعارَة ، وأين أمك يا فاروق ، وعبد الناصر ، والسادات ، ومبارك ، والإخوان ، ورجال الأعمال ، والسجن، والمعتقل ، وخطب الشيخ المحلاوى ، والمظاهرات ، والاعتصامات ، وعمال النقل العام ، والإضرابات ، وصحف المعارضة .

قال :

ـ اعتقلنى عبد الناصر ، وعذبنى رجاله ، وظللت أحبه ، حتى بعد النكسة لم أكرهه!

وجد فى شعارات الثورة ما يدفعه إلى تأييدها ، الارتباط بها . ظن فى الأمر خطأ ، يفطنون إليه ، يعتذرون ، ويعيدونه إلى البيت .

ألف تصديق جمال عبد الناصر ، تقنعه الكلمات المتسمة بالعفوية ، والصوت الرنان . يتذكر قوله على مقهى السمان : عبد الناصر يخطب اليوم ، أعرف أنه قد يكذب ، لكننى سأصدقه !

أحب عبد الناصر الخطب والأقوال والشعارات والمواقف المعلنة والتصريحات . ما عاشه فى أيام الاعتقال القصيرة يختلف عن الذكريات التى قرأها لإلهام سيف النصر وشهدى عطية ومصطفى طيبة . هل كان يظل حياً لو أنه واجه التعذيب نفسه الذى واجهه هؤلاء، والآلاف الذين شاركوهم العيش وراء الأسوار ؟

ذوى الخوف والتوقع فى توالى الأيام . اكتفى المحقق بأسئلة ـ لا تحمل اتهاماً ـ عن جلسات المقهى ، وما يجرى فيها من مناقشات : هل ما يقولونه فضفضة غير مقبولة ، أو أنها تعكس فكراً له أهدافه ؟ هل تمتد الجلسات إلى خارج المقهى ؟ هل عرفوا التنظيم السرى ؟

قال فى تأثر حقيقى :

ـ إذا لم يعرف ما حدث فهذا خطأ ، أما إن كان يعرف فهى جريمة!

وغامت عيناه، كمن يستعيد ذكرى قديمة:

ـ فى زمن اتهمت بالشيوعية ، وفى زمن اعتقلت وأنا أغادر أبو العباس .

ونزع النظارة الطبية، نفخ فى زجاجها، ثم مسحها بمنديل ورقى:

ـ فى المرة الأولى لم أكن أعرف شيئاً حقيقياً عن الشيوعية ، وفى المرة الثانية لم أكن أعرف من المتدينين إلا عم زيدان خادم الموازينى !

وانتزع بسمة شاحبة :

ـ أذكر قول الضابط : أنت حر فى انتقادك للحكومة ، ونحن أحرار فى اعتقالك !

قال مدحت:

ـ ما أعرفه أنهم يتغاضون عن أية معارضة ما لم تتحول إلى تنظيم.

فتحت راوية الباب لتوالى رنين الجرس والطرقات .

أزاحها الرجل ذو القامة الطويلة ، الممتلئة ، والشارب المتدلى على الشفتين ، والنظارة الشمسية . دخل يتبعه رجال يرتدون ثياباً مدنية وعسكرية .

أمضى رجب كيرة خمسة أيام بعيداً عن البيت، لأنه اعتقل فى المساء ، وأفرج عنه صباح اليوم الخامس ، فهى خمسة أيام . يصعب عليه تصور أنه أمضاها متنقلاً بين قسم الجمرك وسجن الحدراء ، قبل أن يخرج بقرار لم يعن بمعرفة من أصدره .

ـ اقتادونى من البيت مرتين ، وعدت إليه دون أن تثبت تهمتى !

وندت عنه تنهيدة أسى:

ـ حتى الآن ، أحاول تخمين الجريمة التى اتهمت بها : الشيوعية أم عضوية الإخوان المسلمين ؟!

ظل بعيداً عن التنظيمات السياسية . وعندما تكونت الأحزاب لم يحاول الانتماء إلى حزب ما ، سواء كان حزب الدولة أم أحد الأحزاب المعارضة .

قال مدحت :

ـ الغلبة الآن لشعار : الإسلام هو الحل !

نظر فى عينيه، كمن يقرأ معنى كلماته:

ـ أوافق على أن الإسلام هو الحل ، لكن أى إسلام ؟

اكتفى بالقول:

ـ الإسلام ..

ـ تقصد إسلام التسامح والتكافل ، أو إسلام التكفير وقطع الأيدى واضطهاد المرأة ؟

وغالب ما داخله من توتر:

ـ هل نقطع يد الفقير السارق ، ونترك الغنى النهّاب يشرب دم الناس ؟!

حدّق فى أبيه بنظرة متأملة .

خرج إلى المعاش قبل ثلاث سنوات ، أو أقل ، لكن ملامحه وحركة جسده تعكس سناً تجاوز السبعين . شعر الرأس الأبيض تطاير معظمه ، التجاعيد صنعت خطوطاً فى الجبهة ، ودوائر حول العينين والفم ، تصرفاته أقرب إلى البطء ، وعافيته غائبة ، وحركته ثقيلة .

ـ مثابرتك تذكرنى بسنتياجو فى العجوز والبحر .

اتجه رجب كيرة ناحيته بنظرة متسائلة :

ـ من سنتياجو ؟ أى عجوز تقصد ؟

ـ هذه رواية لكاتب اسمه همنجواى .

قال الأب كالمتنبه :

ـ أما زلت تذهب إلى الصخرة ؟

واغتصب ابتسامة باهتة:

ـ لا تقل إنك تجلس فوقها لشم الهواء !

لم يصدق مدحت حين تكلم ـ للمرة الأولى ـ عن تردده على الصخرة: هل يسهل على المرء أن يستقر فوقها؟ إذا لم تؤذه الصخور المسننة، فإنه عرضة لأذى العواصف المفاجئة.

قال مدحت :

ـ هى نزهتى الوحيدة .

ـ نزهة على صخرة ؟!

ثم وهو يرمقه بنظرة جانبية:

ـ من يريد لقاءك .. هل يعوم إلى الصخرة ؟

استطرد دون أن ينتظر رداً :

ـ ماذا يفعل إن كان لا يعرف العوم ؟!

يروعه أن الصخرة ـ فى رواية مدحت ـ تخلو من كل شيء ، ترتطم بها الأمواج من جوانبها ، وتحلق فوقها طيور البحر . ليس ثمة ما يشاهده ، أو يستمع إليه ، سوى البلانسات التى تبحر فى اتجاه البوغاز ، وصيحات الطيور فى رحلاتها ، والتماع الأسماك فى تقافزها فوق المياه ، عند استوائها أيام الصيف .

ـ أصحب معى كتاباً وأسئلة ورغبة فى التأمل .

ـ تستطيع هذا وأنت فى بيتك !

ـ تتيح لى الصخرة ما لا أجده فى أى مكان .

ثم وهو ينظر بالشرود إلى نقوش السجادة تحت قدميه:

ـ أوقات جلوسى فوق الصخرة فرصة للتركيز .

الجلسة فوق الصخرة تعفيه من الزحام ، ونظرات الفضول ، والأسئلة ، والملاحظات ، والزعيق ، والنداءات ، والنصائح التى لا تقنعه.

لم يشغله ركوب البحر ، والسفر إلى المدن البعيدة ، همّه أن يكون فى البحر دون أن يفارق اليابسة ، لا تبتعد عنه أصداء الملامح والأصوات .

رفّت على شفتى الأب بسمة إشفاق :

ـ عندما أريد أن أراك ، هل أجدك هنا ، أم أذهب إلى الصخرة ؟

ـ فى الشقة تليفون ، ولا أحمل فوق الصخرة إلا الكتاب الذى أقرؤه.

سرى القلق فى صوت الأب:

ـ ألا تخشى الغرق ؟

دارى مدحت ابتسامة علت شفتيه ، أرجع ـ بينه وبين نفسه ـ تقارب زيارات أبيه ، وملاحظاته ، وأسئلته ، إلى انشغاله ـ فى حياة مروة ـ بمرضها . لم يعد ـ بعد رحيلها ـ ما يشغله .

ـ أستأجر فلوكة ، تذهب بى وتعود فى الوقت الذى أحدده .

قال رجب كيرة :

ـ لما استأجرت شقة بمفردك تصورت أنك ستعدها للزواج .

ـ يشغلنى ما هو أهم من الزواج !

يعرف أنه يكتب لنفسه ، لا يحاول نشر ما يكتبه ، يكتب ما يخطر فى باله ، لا يشغله إلى أى أجناس الكتابة تنتمى ، خواطر ، دراسات ،

تأملات . فكر فى أن يتقدم لمسابقات قرأ عنها، ثم عدل عن تفكيره .

ـ هل تكتب للدرج ؟

قال مدحت :

ـ أنا أكتب لقارئ أتخيله.

ووشى صوته بإحساس خيبة الأمل:

ـ لعله لم يوجد بعد.

لم يعد الأب يثق فى أنه يستطيع أن يفعل شيئاً ، عدا ما اختاره لنفسه : إدارة التفتيش فى الصباح ، والجلوس فوق الصخرة بعد الظهر ، ما بينهما زيارات متباعدة لراوية ، وقراءات وكتابات ، اكتفى بطمأنة مدحت له أنها لا تناقش السياسة .

اتجه إليه بنظرة متسائلة :

ـ الشبان فى سنك يحبون البنات لا الكتب !

وهو يضحك :

ـ الكتب فيها البنات !

ونقر بإصبعه على حافة المكتب:

ـ الكتب فيها كل شيء !

ـ فكرة الزواج .. ألا تشغلك ؟

افتر فمه عن ابتسامة هادئة :

ـ أحياناً .

- ما يمنعك ؟

أشاح بيده ، وظل صامتاً .

- قد يساعدك الزواج على التخلص مما يضايقك .

- وقد يضيف مضايقات أخرى .

- لا أفهمك .

- ليس الأمر لغزاً ، أجد فى الصخرة ما يساعدنى على الاختلاء بنفسى .

نطقت ملامح الأب بالدهشة:

- أنا أولى بالتعود على الوحدة .. لابد أن أتوقعها .. أما أنت فالمستقبل أمامك .

وقال كمن يحدث نفسه :

- تمنيت لو أن أحدكم فعل ما أخفقت فيه !

ووشت نظراته بما يعانيه:

- أنتم رجائى فى هذه الدنيا .

وسرى التهدج فى صوته، بما لم يعهده مدحت من قبل:

- عدا ذلك ، لم يعد لى فيها رجاء .

قال مدحت :

- بابا .. لا تنشغل بنا .. حاول أن تعتنى بنفسك .

واحتضنه بنظرة مشفقة:

ـ أديت رسالتك ، من حقك أن تستريح .

ـ هل يضايقك اهتمامى بكم ؟

ـ يضايقنى عدم اهتمامك بنفسك !

وافتعل ضحكة :

ـ لولا معرفتى أنك سترفض ، كنت سأقترح عليك الزواج ثانية .

ـ تقصد ثالثة ؟.. تريدنى قاتلاً للزوجات ؟!

وشت ملامح مدحت بالتأثر :

ـ أنت مريد فى الشاذلية .. الحياة والموت بأمر الله !

أدرك أنه من الصعب أن يقنع مدحت بالخروج من العزلة ، الكلمات القليلة ، المدغمة ، لا تقنعه ، عزلته فى البيت ، وفوق الصخرة ، سره الشخصى الذى يحتفظ به . لم يكن أحد يعلم ، ولا عكست ملامحه ، ما يدور فى نفسه.

عمّق قلقه ـ وخوفه ـ ما رواه شوقى أبو حسين عن تحول الصخرة ـ ساعات الليل ـ إلى استراحة لعرائس البحر ، تصعد العروس إلى الصخرة ، تريح جسدها ، تبدل أفق المشاهدة بمشاهد الأعماق ، تتطلع إلى دنيا البشر فى خفية من الأعين ، ربما ظلت فوق الصخرة ، فى غير أوقات الليل ، يفاجئها مدحت وتفاجئه ، تلحق به الأذى .

زاره فى مكتبه بإدارة التفتيش ، بيته القديم ، له فيه زملاء ورؤساء، عرف أن العزلة اختيار مدحت ، يظل فى مكتبه حتى نهاية الوقت ، يمضى إلى البيت ، ربما تمشى ما بين سراى رأس التين وانحناءة الطريق إلى المينا الشرقية قبل أن يعود إلى مرسى الفلوكة . يستقلها

حتى الصخرة . يمضى إلى الخابور ، فى المسافة الفاصلة بين البحر واليابسة ، ينزع الحبل ، ويدفع الفلوكة ، ثم يبدأ التجديف ، يخترق المياه إن كان الموج حصيرة ، ويغالب التيارات إن فرضت النوة تأثيراتها . يربط الحبل فى نتوء مدبب أسفل الصخرة ، تعلم الصعود ـ بالحذاء الكوتشى ـ فوق الطحالب والأعشاب الزلقة ، لا يحمل طعاماً ولا ملابس ، يلقى على كتفيه حقيبة جلدية صغيرة ، بها كتاب ونوتة وأوراق بيضاء .

عرف رجب كيرة أنه لن يستطيع إقناعه بالخروج من عزلته .

ثنى إليه ملامح متسائلة :

ـ هل تصلى ؟

ـ جلستى فوق الصخرة صلاة دائمة .

ـ أعنى الصلوات الخمس .

أراد مدحت أن يقول شيئاً، تحركت شفتاه، ثم سكت. استحثه رجب كيرة على الكلام، همس فى كلمات متباطئة:

ـ هل تستريح إلى كل من يجالسونك فى قهوة السمان ؟

رنا الأب إلى الحزن فى نظرته :

ـ أنت صوفى ؟

ـ إذا كان الخلو إلى النفس صوفية ، فأنا كذلك !

وشى صوت الأب بلهجة معتذرة:

ـ هل ضايقتك ؟

أردف فى لهجته المعتذرة:

ـ أعرف أنى لا أمتلك الصحة التى تتيح لى ما أريده ، لكننى أمتلك الخبرة التى ربما أفدتكم بها.

وغالب حشرجة فى حلقه :

ـ اعتبرونى ضيفاً عليكم .. على الحياة نفسها .

ما الذى قاده إلى هذه الصخرة ؟

لم يكن قد ألقى على نفسه السؤال ، ولا ناقش حرصه ـ منذ تاق للجلوس على الصخرة ـ أن يمضى إليها . لماذا فكر فى التوجه المتكرر إليها ، الجلوس فوقها ساعات طويلة من النهار ؟

لم يكن يعرف الصخرة ، ولا فطن إليها ، قبل أن يركب البلانس المزين بالأعلام والشارات الملونة ، ركابه يغنون ويرقصون فى احتفال شم النسيم . صحب راوية ليرضيها ، بدت الصخرة ـ من قرب ـ ساكنة، هادئة ، مغرية بالحياة فوقها ، تطل على آفاق الأمواج من كل جانب ، وإن حدها أفق الأرض من جانب الأنفوشى .

قال المراكبى شاهين فصادة :

ـ أعجبتك الفلوكة ؟

قال مدحت كيرة :

ـ لا بأس بها .

ـ لكنها لا تصلح للرحلات الطويلة .

ـ أريدها إلى الصخرة وأعود .

ـ أفضل أن تحدد لى موعداً ، أذهب بك إلى هناك ، وموعداً لأعود بك .

ـ سأدفع لك قيمة الساعات التى أستأجرها !

لاحظ ميله إلى العيش فى عزلة . يحس بالغربة حتى بين أبيه وأخويه ، الجلوس فوق الصخرة يقربه من نفسه ، يشعر أنه هو ، يتأمل، يحدق ، يتذكر ، يعيد التفكير فى أحداث تصور أنه نسيها . هو مثل طائر يجد معنى حياته فى التحليق بعيداً عن الزحام والضجيج والزعيق والإحساس بالغربة .. قرأ لفرجينيا وولف " غرفة خاصة بى " ، هذه صخرة خاصة به ، تبعده عن الدنيا ، وتصله بها .

ما كان يدهشه تبدّل ألوان الصخرة فى وقفته على الشاطئ، وفى اقترابه منها. فسر ما يراه بتبدل أحوال الجو ما بين صحو وغيم وضباب، تتبدل الألوان من الألق المتماوج، إلى البنى الأقرب للسواد. تبدو الصخرة ـ عند اقترابه منها ـ فى لونها الحقيقى.

الصخرة تخلو من أى شيء، إلا استواء الصخور ونتوءاتها، يصعب ـ لصغرها ـ أن تسمى جزيرة، الطحالب المخضرة اللزقة تحيط بجزئها الأسفل، لا دلائل حياة، حتى الفئران اقتصرت على صخور الشاطئ، تطل من فجواتها ـ بنظرات مستطلعة ـ وتختفى، ليس إلا ما يشبه الشجرة الصغيرة فى طرف المكان، والأمواج تحيط بها من كل الجوانب.

فى النوات، ترتطم بها الأمواج المزبدة، يعلو رذاذها ، يصل إلى

قرب جلسته فى أعلى ، أو تغمره الأمواج ، وتعود إلى البحر. قدرته على التفكير ، والإجابة عن الأسئلة التى تشغله ـ عند اشتداد الرياح والعواصف والأمطار ـ لا تغيب، وربما تزداد قوة . يعد نفسه لأوقات النوة ، ربما لزم البيت فلا يتجه إلى الصخرة . فى أوقات الصحو، تبدو الأعماق رائقة، يعمق السكون ترامى الأصوات من الشاطئ، أو دوران محرك لنش فى مدى الأفق، أو انطلاق طيور النورس فى سماء الخليج.

العزلة التى اختارها لنفسه ، مداها أفق البحر ، تزيل ما قد يداخله من الشعور بالوحدة .

يرقب التقاء البحر بالسماء فى نهاية الأفق ، يعرف أن أفق البحر يختلف عن سراب الصحراء فى الأرض التى يبلغها ، ما يتصوره الخيال من الموانى والمدن والبشر .

يشعر أنه فى مدينته الخاصة ، عالمه الخاص ، تنداح فى داخله رؤى وأحلام وتصورات ونداءات وأسئلة ومحاولات للإجابة ، يفرغ لما بين يديه من كتب وأوراق . هو بعيد عن الزحام والصخب وكل شيء ، يخلو إلى نفسه وحدها ، يأخذ منها ، يعطى ، يجيب عما يشغله من أسئلة ، يخرج من الكتاب الذى يقرؤه برءوس موضوعات ربما يكتبها .

حتى لا يعروه الملل فوق الصخرة ، فإنه يبدّل اتجاه جلسته . التأمل يبين عن اختلاف المشاهد بين الصخرة والآفاق المحيطة . ثمة فى الجانب الأيمن مبنى الكلية البحرية وسراى رأس التين ، وفى الجانب الأيسر مركز الشباب ، وقصر الثقافة ، ومساكن السواحل ، وجانب من أعلى قلعة قايتباى . آفاق الأمواج إلى ما لا نهاية ، تقابل الخط

الرمادى ، تصنعه البنايات على امتداد الساحل ، وفى موضع ، خلف البنايات - يتصوره - تنبثق مئذنة أبو العباس .

مرة وحيدة، ضج المكان بهتافات الناس من الفلايك المزينة بالأعلام الملونة، وباختلاط الكلمات الملحنة والأغنيات والموسيقا ودقات الطبول ، الاندفاع المجنون يأخذ الفلايك إلى نهاية الأفق، لا يلحظ من فيها جلسته، ولا يلتفتون ناحية الصخرة.

عرف أنه سباق الفلايك فى شم النسيم، شحب الضجيج فى اندفاعه نحو الأفق، وعلا فى طريق العودة، حتى بلغ الشاطئ، ثم سكن كل شىء.

بعيداً عن الصخرة ، يداخله - ويحزنه - شعور الغربة . ذلك ما يشعر به ، حتى وهو يجلس بمفرده فى الشقة ، يلجأ إلى القراءة وسماع الراديو ومشاهدة التليفزيون ، لكن إحساس الغربة يظل فى داخله ، يدرك زواله حين يرتقى الصخرة ، هو الذى اختار الجلوس فى وحدة ، ينظر إلى الآفاق من حوله ، لا شىء إلا الأمواج . قد يترك الكتاب ، يرهف السمع لصوت طائر ، يحاول تبين نوعه . ربما أغلق الكتاب ، وشرد فى الأفق متسائلاً : ماذا يريد الكاتب ؟ . قد يناوشه التفكير - بعد أن يغلق الرواية - فى المصير الذى انتهت إليه شخصياتها : هل يمكن أن يحدث هذا ؟

اجتذبه الصراع بين الحوت الهائل موبى ديك والزبان الأعرج إيهاب، الموت يواجه إرادة الإنسان . تعدد حمله رواية ملفيل إلى الصخرة ، قرأها ثانية ، استعاد أحداثها ، تأمل شخصياتها ، عاش رحلات الصيد ، والمغامرات ، والاكتشافات ، والجزر البدائية ،

وحكايات السحر والجان والمخلوقات المتوحشة ، وغرائب العيش فى المحيط .

يترك موضعه لحظات تهيؤ الشمس للغوص فى الأفق ، تحولها إلى نصف دائرة هائلة مصبوغة فى الحمرة ، يمضى بالفلوكة إلى صخرة الأنفوشى ، وإن تظل نظراته على التفاتها إلى الأفق .

عرف فى جلسته أنواع السفن ، ميز بين البلانسات والدناجل واللنشات والفلايك والأشرعة والصوارى ، وصيد الجرافة والطراحة والسنارة ، ميز حتى بين طيور البحر : النورس والبط والخضارى وسمانة الغرب والعصافيز والدقناش وفرخة الغيط والوروار وأبو فصادة وأبوديل والغر والكيش .

لم يكن التوجه إلى الصخرة ، ولا الجلوس فوقها ، مما يشغله ، قبل أن تذهب به المصادفة إليها .

مرة وحيدة نظر بالخوف أسفل الصخرة ، يتبين مصدر الصوت القريب ، كأنه عواء . عمق من خوفه أن يده - فى تلك اللحظة - كانت تداعب أسفل بطنه ، وتشرد فى تهويمات اجتذبته تماماً .

وقف ، وعاود التحديق ، والتلفت ، وملاحظة أثر حركة فى الصخور، أو الموج الساكن . عاد إلى جلسته ، بعد أن فسر الصوت بأنه لباخرة مضت بالقرب من الصخرة .

نحى الكتاب ، شرد فى البساط السحرى ، ومصباح علاء الدين ، وخاتم سليمان ، وعفريت القمقم ، والبلورة التى ترى الوقائع البعيدة .

سرقه النوم فى جلسته فوق الصخرة . صحا على كائنات ليست من

البشر ولا الحيوان ولا الطير ، تلامس وجهه ، تهم بنقر عينه ، تنهش أنفه وفمه وأذنه ولحم وجهه ، لم يحدد ما رآه ، اختلطت المشاهد ، فغاب اكتمال المعنى .

تلفت حوله ..

بدت الآفاق ممتدة ، تصطبغ بلون قرمزى ، وإن ظلت زرقة السماء صافية ، تتناثر فيها سحابات بيضاء صغيرة .

القرار إلى الصخرة يبعده حتى عن نفسه ، عن الأسئلة التى تغيب ردودها ، أفق البحر من كل الجوانب يحيطه بالطمأنينة ، لا ينشغل إلا بما حوله ، توالى الأمواج ، هبات الريح ، انطلاق البلانسات واللنشات والقوارب ، أصداء الحياة على الشاطئ .

الأعشاب الزلقة والطحالب هى ما يضايقه فى اعتلاء الصخرة ، والنزول منها ، يجيد السباحة ، لكنه - إن سقط فى المياه - سيفقد ما يحمله .

طرد الله إبليس إلى الأرض ، وأمر آدم وحواء بالهبوط إليها ، هى الموضع الذى يعيش فيه من تعاقبهم السماء ، البشر والجان والشياطين .

لو أنه امتلك ما يبعده عن الأرض ، عن الجاذبية ، يرفرف ، يحلق ، يعلو ويعلو ، يخترق فضاءات حتى يجد ما لا يرفضه ، يمضى إلى الموضع الذى يريده ، الذى تطمئن إليه نفسه ؟

يعيد النظر إلى الأفق أمامه ، يطرح الأسئلة ، يتوقع ما لا يتبينه .

وشى صوت مدحت بنبرة غاضبة :

- ليتك تطلب من الأباصيرى أن يحسن معاملة راوية .

لم يكن التليفون - قبل أن ينتقل الأبناء إلى بيوتهم - يكف عن الرنين، ينساه الآن ، لا يتذكره إلا فى مكالمات الأبناء المتباعدة .

بطن صوته بعتاب :

- نسميه الشيخ .

تجاهل مدحت الملاحظة :

- لماذا يسيء معاملتها ؟

فى قلق :

- هل شكت لك ؟

- لو أنها شكت فلن أرحمه ، ذهبت إلى بيته زوجة لا سجينة !

يعرف أن مدحت أحاط نفسه بالصمت ، لا يتكلم إلا إجابة عن سؤال ، الكلمات قليلة تقصد المعنى .

قال كمن يكلم نفسه :

- ألاحظ أن الطريقة أخذته من أصدقائه ..

وضغط على الكلمات :

- سأكلمه !

جاوز مدحت العزلة ، وعدم المشاركة ، والصمت، تناسى القراءة والصخرة والأسوار التى أحاط بها حياته . رفع سماعة التليفون ، وطالبه بأن يفعل شيئاً .

ظلت صداقته للأباصيرى على توثقها ، يلتقيان فى الجامع ودروس المغرب وحلقة الذكر . قصر زيارته لراوية ـ بعد زواجها ـ على أوقات متباعدة ، يعرف مواعيد الأباصيرى خارج البيت ، فيلتقى راوية والولدين .

مسح الشقة من موضعه فى الصالة : لراوية الحجرة المطلة على المنور ، لمدحت وسعيد الحجرة الملاصقة ، تفصل الصالة بين الحجرتين وحجرة نومه ، تطل على شارع أبو وردة ، قاسمته فيها عنايات ، ثم مروة ، حتى رحلت ، ألف القول : حجرة راوية ، حجرة الولدين ، لم ينقلوا ما كان فيهما من أثاث إلى بيوتهم الجديدة ، ينامون القيلولة ، أو يقضون الليل إن أطالوا الزيارة .

حاولت مروة أن تعيد ترتيب الصالة . وضعت الكراسى فى الأركان، وطاولة السفرة فى جانب الصالة ، بدلاً من وسطها . أعادت النظر ـ فى اليوم الثالث ـ فأرجعت قطع الأثاث إلى ما كانت عليه .

زار راوية .

سأل عن الزرقة فى ذراعها :

ـ ما هذا ؟

شوحت بيدها فى تألم :

ـ وقعت !..

ثم وهى تغالب انفعالها :

- اصطدمت بشىء !

يؤله العجز وهو يرقب انعكاس حزنها فى كلماتها وتصرفاتها ، وشرودها الذى لا تبين عن أسبابه .

- ما هو ؟

وهى تزفر :

- يد الشيخ !

بحلق :

- ضربك ؟!

- هذا هو حاله !

وضعت رأسها فى يديها ، راحت فى البكاء ، اهتز كل جسدها ، اكتفى بربت كتفها ، وهو يغالب الحيرة .

- لماذا تسكتين ؟

وهى تغالب نشيجها:

- أكتم فى نفسى .

ورنت إليه بنظرة حزن منكسرة:

- لّحت لأبى .. لم يقل شيئاً ، يرى فى الشيخ ولياً لا يخطئ !

ثم وهى تحاول لم انفعالها::

- كلمنى عن ضرورة طاعة الزوجة زوجها !

ـ صمت بابا ليس تعبيراً عن اللامبالاة .. أعرف اهتمام بابا بأمرك.

هل بلغ سكوتها عن تصرفات الأباصيرى هذا الحد ؟

لم تنشأ بينهما علاقة ما . لم يعرف حتى بصداقة الشيخ لأبيه إلا بعد أن تحدث عن تقدم الأباصيرى لخطبة راوية . ظل صامتاً أمام حرص الرجل على أن يأخذ ويعطى . حين دفع إليه بكتاب مما يقرؤه، قال مدحت فى نبرة معتذرة :

ـ عندى مكتبة فيها كتب كثيرة .

لمح سعيد تحول نظرة الرجل ناحيته ، قال :

ـ تقتصر قراءاتى على كتب الاقتصاد !

عاب عليها أنها لا تبدى مقاومة ما ، لا تحاول الرد على اعتداءات الأباصيرى ، ولو بالتهديد . إذا كلمت أباها ـ أو كلمته ـ بما حدث فى الليلة الأولى ، فهى الليلة الأخيرة ، يعود عن جنونه ، أو يطلقها .

لو أنها عرت لأبيها أفعال الأباصيرى ، فلن يخسر الشيخ شيئاً ، سيطلقها ، وتواجه احتمالات قاسية ، قد يحرمها من الولدين ، وربما نزلت ضيفة على مروة فى بيت أبو وردة .

راوية لا تتكلم عما تعانيه ، وإن نبهه مدحت إلى ضرورة التدخل . تصور أن مدحت لم يعد يشغله إلا القراءة فى البيت ، أو فوق الصخرة. قصر سعيد حياته على مشروعات فى الدائرة الجمركية ، يكشف عن بعضها ، عندما يطلب منه قروضاً تعينه على دخول المزادات ، والتوسع .

لماذا لا تكلمه راوية ؟ لماذا لا تصارحه ؟ هل تخاف الأباصيرى ؟ هل تخشى على بيتها ؟ هل تكتم ما يجب أن يعرفه ؟

ـ لماذا وافقت على الزواج ؟

وهى تتجه إلى الفراغ بعينين ساكنتين، تعكسان شرودها:

ـ كنت فى شوق إلى الأمومة .

لم تنظر إلى الأباصيرى إلا أنه رجل ، ذكر ، تحصل من زواجهما على الأمومة .

وانحسر الهدوء عن ملامحها:

ـ لو أنه طلقنى بعد شعورى بالحمل كنت وافقت .

فى دهشة :

ـ تقبلين الزواج لمجرد الأمومة !

ـ هذا هو شرط الدين لأكون أماً !

استطردت لانعكاس عدم الفهم فى عينيه:

ـ الإنجاب هو معنى زواج المرأة .

وداخل صوتها توتر:

ـ تتزوج لتصبح أماً .

ـ وإذا أظهر الزواج عكس ما فى تصورك ؟

فضحت نبراتها ما تعانيه من قلق:

ـ لم أفكر فى الأمر !

يأخذ عليها ـ فى نفسه ـ أنها تتلقى ما يتخذه زوجها من قرارات ، فتنفذها . لا أسئلة ، ولا ملاحظات ، ولا حتى محاولة للفهم .

دارى ابتسامة بظهر يده ، لما احتج حسن الصغير على تصرفاتها :

- أنت تنفذين أوامره كأننا فى الجيش !

- هل أخرج عن طوع أبيك ؟

- كأنه ضابط ونحن ننفذ أوامره !

وأشار إليه :

- جدى لا يفعل ذلك !

تنبه لإشارة الولد . أدرك أن عليه أن يتدخل :

- مهم أن تحترم أباك !

لاحظت صمته وشروده فى الفراغ :

- ماذا يشغلك ؟

وهو يرنو إليها بنظرة حيادية :

- أنت !

ضربت صدرها بيدها :

- هل فعلت ما يغضبك ؟

- بالعكس .. أخشى أن أكون ظلمتك قبل موتى !

- لماذا سيرة الموت ؟

وشوّحت بيدها :

- تف من بقك !

- الموت مصير ، علينا فى هذه السن [وأشار إلى نفسه] أن نعد أنفسنا له !

والتمع القلق في عينيه، لا يقدر على إخفائه:

ـ نحن نولد، ونعيش، ثم يأتي الموت في النهاية.. هذه هي دورة حياتنا باختصار، المعنى الحقيقي لها.

متى يأتي الموت ؟ وكيف ؟ هل يأتيه وهو يعد نفسه للعودة من المقهى ، هل يتسلل إليه في نومه ؟ هل يطول إلحاح الخادمة على ضغطة الجرس ، يقتحم الجيران الباب ، يرونه قد انتهى .

لمحت ظل ابتسامة على وجه الشيخ وهو يسوى العباءة على كتفيه :

اكتفى بالقول :

ـ قصدني الشيخ محيي الهوا ، رسيم الذكر، لأجد له عملاً .

ومط شفتيه :

ـ يبدو أنه قريبه .

ـ وجدت في تزكية الشيخ الهوا له ما أقنعني بقبوله .

همست بالسؤال :

ـ أليس له أهل ؟

ـ لا أحد بلا أهل .

وهز رأسه مؤمناً:

ـ يهمني رضا الشيخ !

شجعها على إبداء ملاحظتها . لم يحدثها عن ظروف تعرفه إلى الشاب ، وما إذا كان من أقاربه ، أو قبله بتوصية الشيخ . فاجأتها وقفته على باب الدكان ، والشيخ إلى جانبه ، يشير إلى نافذة الشقة المواربة .

حين أزمع أن يشترى الدكان ، يضيف بإيراده إلى معاشه الشهرى، خشى صعوبة الجمع بين التجارة والعباءة . وجد فى عرض الوقوف فى الدكان على حودة ما يجعل الدكان مفتوحاً ، وأداء فرائض الدين على حاله .

لاحظ استغراق الشاب فى أداء الذكر ، أخذه التطوح ، واهتزاز الجسد ، وشدة الانفعال ، وخبط الأرض بالقدمين ، والكلمات المنغمة ، وعلو الصوت على بقية الأصوات : الله ! الله ! .. حتى غاب عن الوعى.

صحبه - عقب الذكر - إلى قهوة رأس التين ، على ناصية صفر باشا، روى حودة عن بواعث قدومه من كفر الدوار ، تنقله بين بيوت معارفه ، استلقائه - طلباً للراحة - فى صحن أبو العباس .

واربت الشيش ، كى لا يراها سكان البناية المقابلة - الدكان فى الطابق الأرضى - مدت نظرات متفحصة من انفراجة ضلفتى النافذة .

أعد - بينه وبين نفسه - ما يعتزم قوله لسعيد ، أعاد ترتيب الكلمات، زاد وحذف وبدّل ، تكرر هز رأسه تزكية للكلمات التى اطمأن إلى ملامستها للمعنى .

خرج من حلقة الذكر على رصيف البوصيرى ، قبل نهايتها . اخترق

الميدان . مضى فى الموازينى إلى تقاطعه مع شارع حافظ باشا ، نظر - بتلقائية - إلى نافذة الطابق الأول فى بناية على ناصية تقاطع الشارع مع الحجارى .

الحجرة المطلة على الشارع جعلها سعيد للنوم ، الحجرتان المواجهتان أغلقهما - فيما يشبه المخزن - على بضائع الدائرة الجمركية.

جلس على كنبة الصالة الواسعة ، يحيط بها أربعة كراسى ، وفى انوسط طاولة من الزجاج على قوائم معدنية ، تعلوها فازة خزفية ، بداخلها ريش طاووس .

وافق - بإلحاح سعيد - على بيع قطعة أرض ورثها فى أبوحمص. لم يقتنع بفكرة المشروع الذى أراد به أن يستغنى عن الوظيفة .

عزلة مدحت تصرفه الشخصى ، لا يمتد تأثيرها إليه ، ولا إلى راوية وسعيد . مطالب سعيد لتجارته قد تضيع ما ادخره للأسرة كلها، يصعب عليه الرفض ، يلغى إحساسه بالمسئولية تجاه أبنائه ، التدبيرات لا تنفد ، والمخارج واسعة ، وإن لم يكن من بينها الرفض .

ما يحزنه أن " سعيد " لا يشغله معنى العلاقة بين الأب وابنه ، يأخذ عليه أنه لا يشركه فيما يفكر فيه ، أو يفعله ، يبقيه بعيداً ، حتى الأسئلة التى لا يشغلها التدخل فى عمله ، يرد عليها بغمغمة يصعب تبين مفرداتها ، يحسن الظن بنفسه ، بقدرته على المعاملات التجارية : المناقصات والمزايدات والبيع والشراء والاستيراد والتصدير .

وشى صوته بحسرة :

- لو أنك استكملت تعليمك !

ـ ما أحصل عليه من العمل فى الميناء يفوق ـ بأضعاف ـ راتب الوظيفة .

وأشاح بيده :

ـ لا أريد مرتب الوظيفة .

راتب الوظيفة فى هيئة الميناء يكفى ، لماذا يلجأ إلى عمل إضافى يأخذ وقته وصحته ؟ لماذا يظلم نفسه ؟

حدجه الأب بنظرة مستغربة :

ـ قد يضطر أبناء الفقراء إلى ترك التعليم .. ونحن مستورون !

قال سعيد:

ـ إذا كانت التجارة تدر أضعاف ما تجنيه الشهادة الجامعية ، فلماذا أواصل التعليم ؟

ولجأ إلى يديه فى التعبير:

ـ مشكلتى أنى لا أطيق انتظار المقابلة، وتلقى التعليمات.

واتجه إليه بنظرة متسائلة:

ـ أليست هذه هى الوظيفة ؟!

وهز راحتيه:

ـ هذه أيام البيزنس، لا مجال للتحسر على الفرص الضائعة !

ثم وهو يتظاهر بتسوية ياقة القميص:

ـ أريد أن أكون واحداً من رجال الأعمال الذين بدءوا حياتهم فى الميناء ...

رفت على شفتى الأب ابتسامة سخرية :

ـ رشاد عثمان ؟

قال فى جدية :

ـ ولماذا ليس الحاج عرفة ؟!

واستطرد موضحاً :

ـ كما ترى ؛ فإن القيادة السياسية الآن فى أيدى رجال الأعمال .

حمّل الأب صوته نبرة تحريضية:

ـ على المرء أن يطور حياته لا أن يدمرها !

وأشاح بحركة قاطعة:

ـ ستظل تحلم حتى يخبطك الحيط!

واجهه سعيد بنظرة متأثرة :

ـ إن رأيتنى أتعثر لا تساعدنى على الوقوف !

واختلجت فتحتا أنفه:

ـ دعنى أقف من نفسى !

حين أزمع أن يعمل ـ إلى جانب الوظيفة ـ فى التخليص بالدائرة الجمركية ، بدت الشهادة الجامعية بلا قيمة ، أهمل نصيحة أبيه أن يواصل الدراسة إلى نهايتها . من يريد الثراء ، عليه أن ينتهز الفرص، لا مجال فى عالم المال للتردد أو الضعف . ، شاغله أن يكسب ثروة ، يصبح من رجال الأعمال المهمين ، لا تعنيه الوسيلة ، يتطلع إلى حياة مختلفة ، حياة مغايرة ، يسكن فى لوران شقة علوية بمساحة الطابق ، أو فيلا من بابها ، يضيف إلى رصيده فى البنوك أصفاراً كثيرة ، يأمر

موظفيه وعماله وخدمه ، يقود السائق المهندم سيارته الحديثة الطراز ، هو الشاطر حسن الذى يتزوج ست الحسن والجمال .

يثيره أن أباه يصر على التدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى حياته ، يفرض آراءه على تفكيره وعاداته ، وما ألفه فى إدارة عمله . على أبيه أن ينفض عن رأسه المشكلات التى دسه فيها ، من حقه أن يستريح .

بدأ بمراقبة البحارة الأجانب والسياح في نزولهم إلى المدينة ، يدلهم على الأماكن الأثرية ، يجول بهم الشوارع والميادين ، ربما صحبهم إلى البارات القديمة بالقرب من ميدان المنشية ، يستبدل ما معهم من عملات ، يصحبهم إلى دكاكين سوق الخيط وزنقة الستات وشارع النصر وسعد زغلول . اتجه إلى شراء بلوطات الملابس المصادرة من الدائرة الجمركية ، يبيعها لمحال شارع النصر فى امتداده إلى ميدان التحرير . اقتصرت صداقاته على السماسرة وتجار العملة وباعة التجزئة وحوذية الحناطير .

قال سعيد :

ـ على المرء أن يأخذ كل ما تقدمه له الحياة من الفرص .

ثم وهو يمرر أصابعه النحيلة فى شعره:

ـ أنا لا أؤدى شعائر ، لا أصلى ولا أصوم ، لكننى لا أرتكب الكبائر، أثق فى وجود الله وأخشاه .

فوت رجب كيرة الملاحظة :

ـ ثمن الأرض أريده لمستقبل أختك .

تقلصت ملامح سعيد بمعنى الاستياء:

ـ راوية مسئولية زوجها !

هز الأب رأسه :

- فى هذه الأيام .. لا أحد يضمن المستقبل !

حك سعيد ذقنه بطرف سبابته:

- أنت تنشغل بأحداث قد لا أكون حياً لأراها !

تفحصه بعينين محدقتين ، كأنه يتبين وجوده أمامه للمرة الأولى :

- الفلاح يضع تقاوى النخلة وهو يعرف أنها ستثمر بعد رحيله .

وداخل صوته تغير:

- لا أتصور أن تفكير المرء يقتصر على فترة حياته !

يؤلمه أن ينكر عليه أبناؤه أبوته ، لا يواجهونه ، لكن ذلك ما تشى به أقوالهم ، وتصرفاتهم .

قال الطراوى وهو يسلمه النارجيلة :

- لماذا تتصور أن أولادك فى حاجة إليك ؟

ثم فى نبرة متواطئة:

- أنت تحتاج إلى من يرعاك وليس إلى من ترعاه !

وعلا صوته بنبرة خطابية :

- تحتاج إليهم ، وليس العكس !

واستعاد مبسم النارجيلة، وجرى عليه براحة يده:

- أخشى أنك غير راض عن أبنائك لأنهم ليسوا على شاكلتك !

هل لابد أن يظل الإنسان ناعياً للهم ؟ هل لابد أن يكون مسئولاً عن آخرين ؟ لماذا لا يستمتع بحريته ؟ بمسئوليته عن نفسه ؟

هو حر ، وقته ملكه ، لا مسئوليات لديه إلا مسئولياته أمام نفسه . لا توقع سوى الانتظار فى ذاته .

هل هذا ما انتهت إليه حياته ؟

طلب الشيخ أن تزيد طبقاً فى وجبة الغداء ، تسلمه لحودة فى بسطة الباب الخارجى ، تنادى عليه من النافذة ، تهبط السلالم إلى حيث يقف ، تأخذ الطبق الفارغ ، وتعطيه طبقاً فيه أكل ، يتبادلان كلمات تحية . ربما تطرقا إلى أحوال الدكان وما يطلبه من الشيخ ، أو ما أبلغها به الشيخ لتبلغه حودة .

داخلها تعاطف مع شعوره بالغربة .

حين صادف حلقة الذكر على رصيف سيدى البوصيرى ، اندس بين الذاكرين، حاول تقليدهم ، طوّح رأسه وجسده ، غمغم بما أمكن التقاطه من العبارات التى كانوا يرددونها . شعر أنه ينفصل عن الحلقة، وعن الميدان ، والناس من حوله .

بدا وحيداً ، لا يزوره أحد ، ولا يترك الدكان إلا ليشترى طعامه واحتياجاته من شارع الميدان ، ومن الدكاكين المجاورة .

صف على الأرفف قطع الصابون وعلب السجائر والشيكولاتة ، ووضع - فى المدخل - صندوقاً للمياه الغازية .

يقضى يومه فى الدكان ، يغلق عليه شيش الصباح آخر الليل . أسدل ستارة فى الركن ، على حصيرة ، ومخدة ، ووابور جاز ، وبراد،

وكوب ألمنيوم ، وسكين ، وملاعق . يسدل الستارة على زاوية الدكان لينام .

قال الشيخ إن عبور الولدين الطريق لشراء احتياجات البيت ، قد يعرضهما للخطر ، حسن فى السابعة ، وحسين أصغر بسنة واحدة :

- يمكنك أن تكلفى حودة بشراء ما تحتاجين من السوق .

ثم وهو يتهيأ لمغادرة البيت :

- لا تنزلى إليه إلا إذا ارتديت الحجاب .

تأملت القامة المديدة ، والشعر المسدل إلى نهاية القفا ، وذلبشرة السمراء ، والعينين السوداوين الضيقتين كأن جفونهما التصقت ، يرتدى بنطلون جينز يلمع من شدة الاتساخ ، يعلوه قميص أزرق مبتل بالعرق الملحى ، نصف دائرة من تحت الإبطين إلى أعلى الصدر .

يغلق الباب الزجاجى ، يشترى لها احتياجات البيت من شارع الميدان ، يعبر الطريق إلى الناحية المقابلة ، تبلغه ، أو تسلمه ، ورقة بما تحتاجه .

ربما أطال الوقفة ليستوضح ما يبدو غامضاً ، تجيب عن أسئلته ، وتسأله ، فى نظراتها وصوتها المحرض ، ما يطيل الكلام ، الأخذ والرد ، والشعور بالسعادة .

نشأ بينهما نوع من التخاطب الصامت ، الإيماءات والإشارات ، ولمسات الأيدى .

يستأذن، لأنه أطال الوقفة أمام الباب . تهمس إنها مازال لديها ما

تريد قوله ، يوزع تلفته بينها وبين الدكان والنوافذ المفتوحة ، والموارية ، في المواجهة ، والمارة .

- هل تخشى قدوم الشيخ ؟

رفع كتفيه:

- ربما !

- صلته بي وبالولدين هي الزيارة الأسبوعية ومصروف البيت !

لانت لهجتها:

- لا يأتي قبل الحضرة .. بعد صلاة العشاء .

تجد راحة في غيابه عن البيت ، يحرص على ليالي المبيت عند زوجته الأولى ، فطنت إلى خشيته من أبنائه ، ثلاثتهم موظفون . تباعد قدومه إلى البيت ، اقتصر على ليلة واحدة كل أسبوع . بقية الأيام يتجه من حلقة الذكر إلى بيته القديم في شارع قبو الملاح .

لحقه صوتها وهو يهم بالابتعاد :

- إن زاد ما تدفعه ، خذ من الشيخ !

استطردت لنظرته المتسائلة :

- الأسعار نار ، وهو ليس هنا !

تنبهت إلى انعكاس قولها في نفسه، استدركت :

- الشيخ مشغول في الحضرة ، لا يعرف كيف تسير الدنيا !

عاد بخطوات مترددة .

تأمل قامتها القصيرة ، الممتلئة ، وبشرتها القمحية ، وعينيها السوداوين ، وأنفها المتضخم ، ليست جميلة ، وإن لا تخلو من أنوثة .

لم يكن قد التقط فى لقاءات مدخل البيت [تدفع إليه ورقة بما تطلبه، وتصعد] سوى ملامح وامضة فى حركتها السريعة . حاول - من قبل - أن يتسلل بنظراته . حين تلتقى النظرات يتجه إلى الناحية المقابلة .

اصطدمت نظرته المتأملة بعينيها المحدقتين . غلبه الارتباك ، ثنى نظرته إلى حركة الشارع . عيناها تقولان أشياء كثيرة .

قال فى ارتباكه :

- هل أكلم الشيخ ليزيد إنفاقه على البيت ؟

بحلقت :

- لو أنك فعلت فسيطردك ويطلقنى .

مسد صدره براحته:

- أنا أفضفض !

واتته الجرأة :

- أعرف أن الشيخ مشغول عنك بالشوق إلى الحور العين فى الجنة !

أردف مدفوعاً بكلماتها المتشكية :

- عميت عيناه عن أجمل الحور فى بيته !

عرف أنه لو لم توارب الباب ، ما خطر له أن يفتحه ، يدفعها إلى ما هو أكثر من الكلمات الملمحة ، والمتشكية ، لم يفلت الفرصة ، وإن فاجأته تماماً .

هى تناديه باسمه ، لماذا لا يناديها باسمها ؟

اطمأنت إليه ، فباحت بما فى نفسها .

اتخذته سراً ، صارحته بما تعانيه فى حياتها مع الشيخ الأباصيرى، لم يعد يهمه سوى السجادة ، وأداء الفروض فى أوقاتها ، والتردد على جامع سيدى نصر الدين ، أو سيدى عبد الرحمن ، وأداء صلاة الجمعة فى أبو العباس .

فكرت ـ قبل أن يتقدم الشيخ لخطبتها ـ فى ارتداء الحجاب ، لكن الشعور بالضيق اقتحمها ، لما عاود نصيحته ـ هل كانت نصيحة ؟ ـ بضرورة الحجاب .

خشيت أن يطالبها بارتداء النقاب ، لكن إهمالها المتعمد للحجاب ، داخل البيت ، وشى برد الفعل المتوقع .

أومأ برأسه إلى يدها :

ـ المانيكير يمنع ماء الوضوء عن أصابعك .

تحرص على إظهار ضعفها أمام أوامره وشخطاته وشتائمه ، ربما ادعت عدم الفهم فى ما تعرفه جيداً .

تحاذر فى مجلسه ، لا تنطق كلمة ربما تجر مشكلة ، تمنع نفسها من الضحك ، تحرص على الصمت ، لا تتكلم إلا إجابة عن سؤال ، وفى كلمات مدغمة . هو الذى يصدر الأوامر ، لا يأذن لها أن تبدى رأياً، أو تناقش . لا يحمل ـ فى عودته إلى البيت ـ إلا المسبحة والتمتمات بين شفتيه ، قد يستعير كتاباً فى تراجم الأولياء ، أو الصوفية ، يخلو إلى صفحات منه ـ كل ليلة ـ قبل أن ينام .

ضبط مؤشر الراديو على موجة القرآن الكريم ، طلب - إن فتحت الراديو - ألا تبدّل الموجة .

لم تعد يدها تدير مؤشر الراديو ، تكتفي بالأغنيات المترامية من الدكاكين والبيوت المجاورة .

اختفت شرائط الأغنيات من موضعها أسفل التليفزيون المغلق - تعددت مؤاخذاته على ما تشاهده من البرامج ، فتركته مغلقاً - أدركت أن الشيخ أخذها .

نفضت همومها .

أفرغت لحودة ما بداخلها ، روت كل ما يجرى فى حياتها ، حتى ما لم تصارح به أباها ولا أخويها ، ما لم تناقش فيه نفسها ، وما كانت تعتبره قضاء لا سبيل إلى رده . تتكلم ، وتتكلم ، تهمل الأعين التى - ربما - تلحظ وقفة حودة على الباب ، ووقفتها أول السلم . روت حتى عن الصغيرين حسن وحسين ، يؤلمها انعكاس توتر علاقتها بالأباصيرى على حياتهما :

- إنهما ابناى عندما يحتاجان لى ، وهما ابنا أبيهما للسبب نفسه .

حاولت أن تلمح لأبيها بما تغانيه فى داخلها الكثير مما تريد أن ترويه ، لكن رجب كيرة ظل على هدوئه ، وإن همس بالتأثر :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

بدا الانزعاج فى عينى مدحت [أهملت رواية ما يسيء إلى هيبة الشيخ] ، قال إنه لم يوافق على زواجها إلا لأن الأباصيرى صديق أبيها ، سعيد مشغول بصفقاته ومشروعاته ، لن تجد عنده اهتماماً حقيقياً .

قال مدحت وهو يدارى ارتباكه :

ـ فعل ذلك فى الليلة الأولى ؟

ـ لم أسكت إلا لأجل الولدين !

وفى نبرة متوترة، خائفة:

ـ وحتى لا أغضب أبى .

أخلى ملامحه للاستياء :

ـ عجوز أصابه الخرف !

ـ فكرت أن أعود إلى بيت أبو وردة.

وهزت رأسها بالتألم :

ـ لم أتصور أن أكون ضيفة فى بيتى على أخرى.

مال عليها ـ ربما للمرة الأولى منذ طفولتهما ـ احتضنها بساعدين مترفقين ، ولامس صدره برأسها .

قبل أن يفاجئها الأباصيرى بما حدث ، كان زوجها ، لا تحبه ولا تكرهه ، لا تسأل ، ولا تناقش ، ترجع بعض تصرفاته إلى استغراقه فى الصوفية ، تدرك أن زواجها قام على المصادفة ، الحدث المفاجأة ، المتكرر ، زلزال لم تتوقعه ، أخفقت فى الفرار منه أو إسكاته ، كل ما يحيط بها يلزمها بالصمت ، صيحاته المحذرة وأبوها والولدان .

لم تعد صورة خودة تغيب عن ذاكرتها :

تجد راحة فى إنصاته الهادئ ، تأمل توقعاته ، نصائحه ، تحذيراته، تقرأ على شفتيه الصامتتين كلاماً كثيراً ، لكنه يهمس ـ فى معظم الأحيان ـ بالكلمات المواسية والتهوين . تعرف قلة حيلته ، لا يملك سوى التعاطف . تكتفى منه بإيماءات ، أو بنظرات مشاركة ، أو بكلمات قليلة يغيب عنها المعنى ، يحرص على تفادى تقابل نظراتهما .

مع أنها روت له كل شيء ، فإنها كتمت ما يجرى فى حجرة النوم ، لا تتصور أنها تروى ما يؤلمها ، وينغص حياتها .

ترمق الشيخ بجانب عينها : النظرة الهادئة ، المسترخية ، الصوت الرائق النبرة ، الكلمات المحملة بالوعظ والحلال والحرام ، هو إنسان غير الذى ينفرد بها فى حجرة النوم ، لا تعابثه الشهوة بغير أذيتها ، يتحول إلى وحش حقيقى ، لا يلحظ أين تتجه ضرباته وصفعاته ، ولا ماذا تصيب ، يغطى جسدها بالكدمات والرضوض ، تشعر أنها قد تحطمت ، تناثرت ، إلى آلاف القطع الصغيرة ، حتى شعرها يجذبه ، فيميل العنق ، يخنقها بأنفاسه اللاهثة ، يحذرها من الصراخ ، تضغط بأسنانها على شفتيها ، تدميهما ، يتواصل الأنين - رغماً عنها - لا تقوى على كتمه ، يواصل ضربها حتى تأتى الرجفة ، يطلق صيحة انتشاء - أشبه بالحشرجة ، أو الخوار - لم تصدر عنه من قبل ، كأنه يعانى ، أو كأنه يموت . يتمدد - فى اللحظة التالية - على جنبه ، ويعلو شخيره .

انبجس الدم - ليلة - من أنفها ، تساقط على يده ، وتناثر على الملاءة، قذف لها بفوطة ، وترك الحجرة .

يناقض ممارساته الوحشية ما يسبقها من صلاة ركعتين - لا تدرى معناهما - يعلو فيهما صوته بالله أكبر ، وسمع الله لمن حمده ، وربنا لك الحمد والشكر ، وآيات القرآن ، والتحيات لله ، والصلوات والطيبات، واللهم صل على سيدنا محمد ، وآل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم ، وآل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد ، وآل سيدنا محمد ، كما باركت على سيدنا إبراهيم ، وآل سيدنا إبراهيم ، فى العالمين ، إنك حميد مجيد .

تعلمت من أبيها أن تصلى فى صمت ، ترفع يديها بالتكبير ، تهمس بالصلاة حتى تنهيها ، دون أن ترفع صوتها .

يرقى السرير ، والأدعية تتناثر من شفتيه " باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " ، ينفث فى يديه ، يمدهما إلى جسدها المتكور ، يجذبها ناحيته ، يحيطها بالأشواك والمخالب والأنياب والضربات الموجعة .

لم تكن - حين فاجأها - قد أعدت نفسها لما حدث .

أربكها تصرفه ، قبل أن تتهيأ لرد الفعل كان قد حاصر خصرها بفخذيه ، دون أن تتوقف الضربات . اعتادت شلحه جلبابه ، ووطئها حتى يقضى . تسلم نفسها حتى يعطيها ظهره ، ويروح فى النوم . انتترت للصفعة الأولى ، تصورت أنه يعاقبها على ما لا تعرفه ، قرن تعريتها بالصفعات واللكمات المتوالية ، أنشب أسنانه فى عنقها . لم يفه بملاحظة ولا عتاب ، ولا أى شيء . انفرجت شفتاه لالتقاط أنفاسه، لم يقل ما تفسر به تصرفه .

ظلت على ذهولها بعد أن أولاها ظهره ، وعلا غطيطه .

رافقها الذهول طيلة يومها ، والأيام التالية ، حتى تنبهت إلى أن التصرف المفاجئ سيظل هو الفعل الثابت ، كلما أرادها .

ظل قناع الهدوء على وجهه ، لا يبرر إيذاءه لها ، ولا يشير إليه ، يتمتم بالبسملة وآيات القرآن والأدعية ، كأنما هذا هو ، يطمئن إلى تحذيره من أن تشكو لأبيها وأخويها :

- ما يحدث بين الزوجين فى الليل سرهما الشخصى !

الليل يخيفها ، تنعى هم إغلاق حجرة النوم ، تتوقع ما يؤلمها ، تتظاهر - فى جلستها بحجرة الولدين ، أو فى وقفتها المتحيرة فى المطبخ - أنها لم تسمع نداءه ، يعيد النداء بنبرة غاضبة .

وطنت النفس على قبول ما تحياه ، مضاجعته لها واجب تؤديه . لم يعد يكتفى بما ينفّرها أصلاً . أضافت الأفعال القاسية شعوراً بالقرف تستعيده بقية يومها ، يغفل تظاهرها بالنوم ، لهاث خوفها يختلف عن غطيط النوم .

أنفت إهمال جسدها بين ساعديه ، يفعل به ما يشاء . تتحمل نزقه وتصرفاته الغريبة ، ذلك التغير فى تصرفاته عندما يأتى الليل ، تستكين إلى صمتها ، لا تعقب على أوامره وملاحظاته ، يعروها ما يشبه الإحساس بأنها ضحية لما تعجز عن رده ، أو مناقشته .

دفنت تألمها داخل صدرها ، تخشى البوح لأبيها أو أخويها . ما يجرى فى حجرة النوم ضريبة قاسية تدفعها للمحافظة على الولدين ، والخوف من أن يكون تصرف أبيها - إن عرف حقيقة ما يجرى - أقسى من تصوراتها .

لاحظت أنها تعانى الحرج فى تبديل ملابسها أمامه ، تضايقها نظراته المقتحمة . وضعت كل ملابسها فى الحجرة الثانية .

لحرصها على ألا تلتقى نظراتهما ، فإن الشك كان يداخلها بأنها نسيت ملامحه ، يعانقها ، فلا تنظر إليه ، لا تراه ، حتى عندما يخلط العناق أنفاسهما ، ويمارس قسوته ، كانت تتألم وتغمض عينيها ، تغمض العينين وتتألم ، ترضخ لتحذيره فلا تصرخ ، تضغط الأسنان على الشفتين ، تدميهما ، وتظل العينان على انطباقهما .

يروح فى النوم ، تقفز من فوق شخيره ، تهرع إلى نداء وهمى من حجرة الولدين .

صــارت تشك فى حــقــيـقــة تدينه : رفع الأذان ، والصــلاة فى مـواعـيدهـا ، وقراءة القرآن ، والحرص على الذكر ، وكلمـات الوعظ ، وركعتى ما قبل صعوده إلى السرير ، يلغيها ذلك الغول الذى يختلى بها فى حجرة النوم .

اقتصرت أحاديثهما على احتياجات البيت ، تعدد ما تريد ، وتلزم الصـمت ، يدخل يده فى جيب الجلباب ، يضع النقـود على الطاولة ، ويمضى . ربما أغناها عن الطلب بشراء مـا يرى أن البيت يحتـاجه ، من شارع صفر باشا .

لم تعـد قـادرة على النظر فى عينيـه حـتى لا يواجـه مشـاعـرها ، يفـاجئـها رد الفـعل بما لا تريد التـفكير فيـه ، تومض أمامـها مـلامح لحسن وحسين وأبيها ومدحت وسعيد ، يغلبها القهر ، فتبكى .

تبينت فى نفسها كثرة الشرود ، ربما ردت على النداء بعد أن يأخذ نبرة الزعيق ، تنتفض قائمة .

تنبهت ـ ذات صباح ـ إلى أن حسن وحسين نزلا إلى المدرسة ، دون أن تعد لهما الإفطار .

شعرت أنها تعرفه من زمن .

تحركها اللهفة لأن تجلس إليه ، تتكلم ، تستمع إليه . تجد راحة فى تكرر اللقاءات ، وفى احتمال تكررها .

لم يعد يشغلها إلا الرغبة فى الجلوس إليه ، تأخذ منه وتعطى . تلتجئ إليه إن عانت الرغبة فى البوح ، فى التعبير عن ضيقها من أوامر الشيخ وتحذيراته وشتائمه . تستجيب لكل ما ينصحها به ، أو تعد لإطالة التفكير ، لا تتخذ قراراً إلا بعد أن تعرضه عليه .

هو يملأ حياتها خلال الدقائق التى يتبادلان فيها الكلام: سؤال ، ملاحظة ، عبارة مواسية.

وجدت فيه كل ما تفتقده فى الأباصيرى . قدم لها ـ من خلال كلماته ـ عالماً جديداً ، يختلف عن العالم الذى تختنق بالعيش فيه .

لم تعد تتحمل فراقه ، تنادى عليه ، تتردد على الدكان لأى سبب ، وبلا سبب ، تداخلها مشاعر غامضة ، مبهمة .

يتشاغل برص البضاعة خارج الدكان ، ينتظر إطلالتها من النافذة. يتبادلان الحوار ـ عن بعد ـ بتعبيرات الأيدى . تقف وراء النافذة الموارية ، فى مواجهة وقفته داخل ظلمة الدكان .

أهملت سؤال نفسها عن طبيعة مشاعرها نحوه : هل هو أذن تهب إنصاتها لما تعانيه ؟ أو أنها تجد فيه ما يغريها بأشياء تغيب ملامحها؟

لم تعد تغطى رأسها بالإيشارب ، عند نزولها إليه على مدخل الباب، تتركه مسدلاً ، مهوشاً ، حول وجهها . أهملت مسح نظراته تفصيلات جسدها ، لا تشعر بالضيق من نظراته ، ولا كلماته المحملة بالجرأة .

لكزته بأصابع مترفقة:

ـ بدّل ملابسك ، أغسل المتسخ وأعيده إليك .

ثم فى مرح متكلف:

ـ وصّى النبى على سابع جار .

وملأت البسمة وجهها :

ـ أنت الآن أقرب جيراننا !

لاحظت فى نفسها أنها فعلت ما أخذت على الشيخ فعله ، لم تحاول السؤال عن أصل حودة ، إذا كان من الإسكندرية ، أم من خارجها ؟ ومن أهله ؟ وماذا كان يعمل قبل أن يندس فى حلقة الذاكرين ؟

ظلت حياته سره الشخصى ، لا يتحدث عن أهله ، ولا عن المدينة التى قدم منها ، «هم وهناك» هما الكلمتان اللتان يشير بهما إلى الاسم الحقيقى .

أولته ثقتها ، دون أن تنشغل بما قبل ، وإن أدركت غربته عن الإسكندرية فى قوله : إنه لا يعرف أحداً فى المدينة، وليس له فيها أقارب ولا معارف.

تصطدم يداهما ، لا تعرف إن تعمد ملامسة يده يدها ، أم أنها المصادفة ؟ .. تداخلها مشاعر غامضة ، تختلف عن مشاعرها فى ملامسات أبيها وأخويها ، وحتى فى عناق الشيخ الأباصيرى .

أهملت ضغطة راحته على ذراعها لحظات انفعاله ، يتعمد ـ وهو يكلمها ـ أن تتلامس أيديهما ، يتبين استجابتها . لا يفلت فرصة لملامسة بشرتها .

أدركت أنها تشعر نحوه بعاطفة حقيقية . أهملت مسح نظراته تفصيلات جسدها ، لا تشعر بالضيق من نظراته ، ولا كلماته المحملة بالجرأة .

لم يعد ينظر ـ وهو يكلمها ـ إلى أسفل، نظراته أقرب إلى الجرأة، تحمل الثقة والسيطرة والقدرة على الإملاء . فسر ما يلوح فى عينيها بمغالبة الرغبة . تشابكت ـ فى مخيلته ـ رؤى ومشاهد الظلمة ـ فى مدخل البيت ـ أغرته بأن يمسك يدها، يجذبها ناحيته ، ويحاول تقبيلها.

عضت على شفتها السفلى محذرة :

ـ عيب !.. يرانا الناس !

تملصت من ساعديه ، انفلتت تقفز درجات السلم .

هم بالصعود وراءها ، ثم تابع اختفاءها فى الظلمة .

تعددت لقاءاتهما . يلمح خروجها ، يغلق الباب الزجاجى ، يميل وراءها إلى رأس التين ، يحتميان بزحام شارع الميدان ، يسيران متجاورين ، يتبادلان الأحاديث السريعة .

غالبت ترددها ، وخوفها ، وهو يسير إلى جوارها فى شارع سعد زغلول ، تكثر من التلفت ، تتوقع عينين تعرفانها . لن يعفيها الناس من نظرات المؤاخذة .

قال :

ـ تكلمت عن ترانزستور أعجبك فى سعد زغلول ..

ورنا إليها بنظرة مستحثة:

ـ ما رأيك لو أهديته لك .

طال اعتذارها وإصراره .

لفها شعور أقرب إلى المفاجأة ، وهى تسير إلى جواره فى الشارع المزدحم بالمارة والصخب والمحال والسيارات والألوان . استغنت عن حقيبة يدها ، اكتفت بكيس بلاستيكى صغير .

السنوات التى أمضتها داخل البيت بدّلت نظرتها إلى الشوارع التى طالما داستها حتى تخرجت فى مدرسة التجارة . يوترها إحساس أن النظرات تتجه نحوها ، لا تعبر ، وإنما تحدق ، كأنها تدرك سرها .

كانت تخرج من المدرسة مع اثنتين أو ثلاث من زميلاتها. يسرن على طريق الكورنيش إلى السلسلة، يعدن فى الطريق نفسه حتى الشارع المجاور لجامع القائد إبراهيم ، تتمهل الخطوات، والنظرات تتطلع إلى الميدان الفسيح، والعمارات العالية على الجانبين، واللافتات على الواجهات وفوق الدكاكين، وعربات الترام القادمة من قلب الرمل، والمتجهة إليه، ودور السينما والمطاعم وشركات الطيران والمقاهى وباعة الصحف ومبنى السنترال والمبنى الدائرى - وسط الميدان - لبيع المشروبات والفشار. يعبرن الشارع الضيق، المفضى إلى شارع سعد زغلول، يتوالى افتراقهن فى ناصية النبى دانيال والفلكى وشارع الغرفة التجارية.

تمضى - بمفردها - إلى محطة الترام ، أمام نصب الجندى المجهول، تنزل فى محطة قهوة فاروق ، ومنها إلى شارع إسماعيل صبرى ، ثم شارع رأس التين ، تميل فى زاوية التقاطع مع أبو وردة .

خشيت أن يفتقد حسن وحسين وجودها ، أو يتحدث الناس عما رأوه ، ينقلونه ، تصل الكلمات إلى أذن الشيخ ، يصعب عليها تصور ما قد يفعله .

فاجأتها نظرة أبيها المتسائلة ، وهى تكلم حودة فى مدخل البيت .

لاحظت فى نفسها صعوبة التعبير ، وضعف القدرة على إيجاد الكلمات.

- حودة .. أنت تعرفه .. يقف فى دكان الشيخ .. أكلفه بشراء احتياجات البيت .

رمقه بنظرة جانبية : القامة الطويلة ، البشرة السمراء ، العينان الضيقتان، الشعر المنسدل خلف الرأس .

همس وهو يرقى درجات السلم :

- أعرفه ..

وعلا صوته كأنه يريد أن يسمعه :

- إطالة للشعر للنساء !

لم تكن - فى داخلها - مرتاحة إلى ما فعلت ، وإن أسلمت النفس لمشاعر التحفز للمغامرة ، والتعرف إلى المجهول .

فاجأته بالميل إلى شارع البوستة القديمة ، تستطيع الاختفاء فى زحام سعد زغلول ، لا تضمن أن تراها - فى ميدان المنشية - عين تعرفها ، من نافذة سيارة .

تبعها إلى شارع الغرفة التجارية ، استقلت - بمفردها - ترام خمسة من محطة سينما ركس .

دخلت سينما فريال فى العتمة ، لحقها حودة فى الكرسى الملاصق.

عرفت أنه هو حين ضغط براحته على ركبتها . ظلا صامتين حتى انصرفت الأعين إلى متابعة الفيلم .

كان آخر دخولها السينما قبل الزواج . لم تعد تجد تهيؤاً ، ولا وقتاً، للفرجة على أفلام التليفزيون .

أطالت الوقوف أمام المرآة ، تسوى شعرها ، تطمئن إلى ملامحها فى الحجاب الذى أدارته حول وجهها .

مشهد عايدة رياض التى تخون زوجها محمود حميدة فى " ملك وكتابة " ، استدعى وجه الشيخ ، ملأ اتساع الشاشة ، فغابت المتابعة، وحل الارتباك والخوف .

تجاهلت قول الأباصيرى :

ـ ألاحظ أن شخيرك يعلو حينما أكلمك وأنت نائمة .

هى تفعل ذلك ليظن أنها استغرقت فى النوم ، الارتياب فى نظراته ـ أو هذا ما تتصوره ـ ما يلبث أن يغيب ، يعود إلى مألوف حياته : الصلاة وقراءة الأوراد وكتب الصوفية وليالى المولد وحلقة الذكر والتردد على أضرحة الأولياء ومقاماتهم .

عرفت أن الخيط الرفيع الذى كان يصل علاقتهما قد انقطع ، هو فى حياتها كابوس تتمنى زواله .

واجهته بعينين غاضبتين:

ـ أكون نائمة بالفعل !

ـ هل كلامى هو الذى يجلب الشخير ؟!

أهمل الشيخ ما لاحظه أنها تفقد أعصابها بسهولة ، وتنفعل بلا سبب . فطن إلى الفجوة التى نشأت بينهما ، وإن لم يحاول سدها ، أو تضييقها ، اعتبر محاولة الاقتراب منها تنازلاً لا ترضاه نفسه ، لم

يذهب ذهنه بعيداً ، تثيرها أوامره وملاحظاته ورفضه الكثير مما تطلبه، فهى تبدى سخطها .

قال لها :

- لماذا لا تشغلين وقتك بحفظ القرآن ؟

وشى صوتها بالضيق :

- وقتى مشغول حتى عن النوم !

لم يدر ماذا يقول ، فلزم الصمت .

تبدلت أحوالها من الليلة التى لا تنساها ، وما تلاها من ليال ، لم تعد تستطيع تحمل الإهانة التى تتكرر ، ربما مرتين كل أسبوع ، ولا تقوى على التحكم فى تصرفاتها . كل ما يفعله كان يثيرها ، حتى إيماءاته المتوددة .

وهى تعد نفسها للقيام:

- أريد أن أعود إلى البيت .

مال على أذنها فى استغراب :

- كنت تريدين مشاهدة الفيلم ؟

- لم أعد أريد . خذنى إلى البيت .

أدرك خوفها ، فلم يناقش معنى التصرف .

ظل يشير إليها بإيماءة رأسه لتلحق به . يسبقها إلى الدحديرة الخلفية لأبو العباس ، أو خلف الكبائن المغلقة فى الأنفوشى ، ربما اخترقا - متجاورين - زحام شارع الميدان .

تمنى لو تشابكت ذراعاهما ، وتمشيا على الكورنيش ، يتناولان الغداء ، أو العشاء في واحد من المطاعم على امتداد الشاطئ .

هز رأسه بإيماءة تحريض عندما همست بالقول :

ـ لم أعد أتصور حياتى بدونك !

الشيخ الأباصيرى اختيار أبيها ، حودة هو اختيارها ، هو الأمير الذى أنقذ سندريلا من عيشتها الصعبة .

شعر أنه ـ لشدة توتره ـ لا يستطيع الوقوف على قدميه .

تملكه هاجس فى أن يستند إلى الباب ، أو يقتعد الأرض . زاد انفعاله ، فتخاذلت ساقاه ، فقد القدرة على الكلام والحركة.

لم يعد يتجه إلى الدكان إلا بعد أن يتواعدا على لقاء اليوم التالى .

كيف ؟ متى ؟

قالت له فى نهاية شهر رمضان :

ـ هل تقضى العيد فى الإسكندرية ؟

وشى صوته بالحيرة :

ـ أين أذهب ؟

ضغطت يديها على ساعده ، ورجعت بصدرها إلى الوراء ، ورنت إلى ملامحه :

ـ لماذا لا تزور أهلك ؟

ظل صامتاً.

أدركت أنها سألت عن سر شخصى ، الفت إنصاته ، تبوح له بما فى نفسها ، لا يتكلم عن علاقته بالشيخ ، يقصر ملاحظاته على علاقتها بالشيخ ، يصغى ، ينصح ، يبدى الملاحظات .

كلمته عن نفسها ، ولم يكلمها عن نفسه . شرحت ظروفها وما تعانيه ، وظل ساكتاً عن تعرية ظروفه : من أهله ؟ لماذا هجرهم ؟ لماذا قدم إلى الإسكندرية ؟ هل الذكر حقيقة فى حياته ؟

فاجأها بالقول :

ـ متى تكونين لى ؟

استطرد للدهشة فى ملامحها :

ـ متى يضمنا بيت واحد ؟

قالت فى دهشتها :

ـ نسيت أنى متزوجة ؟!

ـ أحل الله الطلاق !

كتمت ملاحظتها بأنه لا يعنى ما يقول ، أو لم يتدبره . قد تلح فى الطلاق ، فتحصل عليه ، ماذا عن الولدين ؟ ماذا عن أبيها وأخويها ؟ هل تقوى على العيش فى بحرى ؟ هل يستطيع أن يفتح بيتاً ؟!

قال :

ـ ألا توافقين ؟

غادرت صمتها :

ـ لا شأن لذلك بموافقتى .

ووشى صوتها بآثار قلق:

- إذا كانت لى ملاحظات على الشيخ ، فليس إلى حد أن أطلب الطلاق .

وهزت رأسها :

- لا أحب لعبة الطلاق !

- ليست لعبة ، إنها وسيلة لإسعاد أنفسنا !

- لست تعيسة فأبحث عن السعادة !

ورمقته بنظرة غاضبة :

- ما ذنب الولدين ؟

- كل ما يفعله بك وترفضين تركه ؟!

- أتكلم عن الولدين .

- هل يضعهما فى باله وهو ينغص عيشتك ؟!

بدا كأنها تتأمل الكلمات ، قالت فيما يشبه الحشرجة :

- لا أستطيع !

وثنت نظرتها ناحيته ، كأنها تعيد التعرف إليه :

- أنجح فى تطليق نفسى، وأتزوجك .. هل يتركك الشيخ فى الدكان؟ وأين نسكن ؟ ومن أين ننفق ؟

حاول أن يتكلم ، شعر أن صوته احتبس فى حلقه ، تنحنح ، ثم صمت .

الهاجس يداخلها أن يتصرف حودة بما يسيء إلى مشاعرها ، تختلط المعانى فى نفسه ، يقول ما لا يتدبره ، ينسى ما تفرضه طبيعة العلاقة بينهما .

سقطت الأمطار بغزارة ، اشتدت الرياح ، أثارت الرمال والأوراق والأعشاب والحصى الصغيرة ، ارتفعت الأمواج بما لم يعهده رجب كيرة من قبل ، كأنها كنست القاع ، صعدت به أسود داكناً ، يرتطم بالمكعبات الإسمنتية ، على امتداد الشاطئ .

قال الجرسون جودة :

ـ نوة قاسم .

ثم وهو يتأكد من إغلاق الباب الجانبي :

ـ الإسكندرية تغسل نفسها !

لا يعرف موضعها بين النوات ، ومدى قوتها ، لكنها بدت غريبة عما ألفه ، التأثيرات ـ خارج الأبواب والنوافذ المغلقة ـ تصخب بصفير الرياح والارتطامات . تصور ـ لغزارة الأمطار ـ أنها شكلت سيلاً ، يهم بابتلاع كل شيء .

واصل السير ـ بخطوات مهرولة ـ في طريق الكورنيش . عرف من الصمت السادر ـ داخل الشقة ـ أن مدحت ذهب إلى الصخرة . هل تبلغها الفلوكة الصغيرة ؟ هل يستطيع الجلوس في العاصفة والأمطار؟

بدا الشاطئ خالياً . توقفت الأمطار ، أو تحولت إلى قطرات صغيرة ، لا يتأثر بها المارة ، ولا يعانون الارتباك . ظلت السماء ملبدة بالسحب الداكنة إلى نهاية الأفق . خمن أن الأمطار ستعود.

لم يدخل حجرة النوم إلا بعد أن اطمأن إلى صوت مدحت في سماعة التليفون.

قرب السماعة من فمه:

- فى جلستك فوق الصخرة ، هل تشاهد شيئاً .. هل تفاجئك أصوات ؟

- أشاهد البحر والطيور ، وتصلنى أصوات البلانسات واللنشات .

- لا أقصد هذا .

- ماذا فى قلب البحر ؟

وأردف مستوضحاً:

- هل تقصد الأسماك ؟

لم يبح بما فى نفسه ، ما سمعه من الطراوى . لو أنه نطق اسم جنية البحر ، ربما قذف بمدحت فى الخوف . تترامى أصوات لم يألفها، ليست أصوات أسماك أو طيور أو مخلوقات فى الأعماق ، لن تخطر الجنية بباله ، هى لا توجد إلا فى ذلك الجسم السمكى القبيح فى متحف الأحياء المائية .

قفز إلى رأسه قول الطراوى فى المقهى:

- أن تفقد أبناءك أقسى من ألا تنجب أبناء!

- وجدت مكاناً نلتقى فيه .

شغلها السؤال : ماذا لو بدّل الشيخ نظام يومه ، تجهده الحضرة ، فيعود إلى البيت ؟

هتف باللهفة :

- أين ؟

كتم خشيته أن يراهما فى شوارع بحرى من يبلغ الشيخ . ما أسهل أن يطرد من الدكان ! ما أسهل أن يذيع سره !

التقطت كلمات أبيها عن دفتر التوفير الذى سحب ما به ليبدأ سعيد مشروعاً جديداً ، ربما استغنى عن الخادمة ، توفيراً للنفقات .

أهمل توالى الأرقام فى كلمات سعيد ، وإن استوقفه قوله :

- إذا أردنا النجاح فى هذا المشروع ، فلابد أن نفك وديعتك فى البنك .

قال رجب كيرة :

- وما شأن الوديعة ؟

- نحن ننفق الفلوس عندما نحتاج إليها ..

وهو ينقر صدره بأصابعه :

- هذه فلوسى أنا !

اصطنع سعيد ابتسامة متوددة :

- منذ أنجبتنا ، من حقنا كل ما تملكه !

- ترثنى وأنا حى ؟!

دون أن تزايله ابتسامته :

- لماذا أنجبتنى إذن ؟

كسا صوته جدية :

- أنت تلغى حق راوية ومدحت ..

- راوية مسئولية زوجها .

ـ ومدحت ؟

ـ هل نعطى فلوساً لمن يبددها ؟

أطال النظر إليه بعينين غاضبتين ، دون أن ينطق بكلمة واحدة .

أحزنه أن " سعيد " لم يعد له ، ولا لمدحت ، أو راوية ، هو لنفسه وحدها ، لم يعد معنياً بالمستقبل الذى كان يأمله له . يشعر أنه يتصرف بروح المقامر ، يتمنى النتائج دون أن يتدبرها ، يتوقع ما يريده وليس ما قد تأتى به الاحتمالات .

فاجأه بالسؤال :

ـ ما حكاية البنت المقيمة فى شقتك ؟

انفرجت شفتاه عن ابتسامة عصبية:

ـ ليست كما تتصور ، إنها مجرد خادمة !

ـ أعرف غير ما تقول .

وواجهه بنظرة متسائلة:

ـ لماذا لا تتزوج ؟

قلب شفته السفلى:

ـ ولماذا أتزوج ؟

ـ بدلاً من أن تضيع صحتك وسمعتك .

فوت الملاحظة :

ـ ما أنفقه على الزواج أستثمره فى التجارة .

ـ نسيت نفسك !.. لم يعد فى حياتك إلا التجارة ؟!

ـ مكسب التجارة يزوجنى بنت السلطان .

ـ تزوج بنت الحلال أفضل !

ـ بابا .. صدقنى .. إنها مجرد خادمة .

رمقه بنظرة مستغربة :

ـ خادمة فى العشرين لشاب فى السادسة والعشرين ؟

ـ هل للخادمة سن محددة ؟

قال بطريقة تشى أنه لا يتوقع رداً:

ـ أنت تؤذى نفسك .

لا يذكر أنه عرض على سعيد فكرة الزواج ، له عمله وصداقاته وعلاقاته التى يوافقه عليها أو يرفضها ، ما يهمه أن يجتذب مدحت من العالم الذى صنعه لنفسه ، مفرداته إدارة التفتيش والمكتبة والصخرة .

علا صوت سعيد بما لم يعهده في نفسه :

ـ بابا .. أنت تريدنا ملائكة .

ـ ما أريده ألا تصبحوا شياطين .

ميلاد راوية بداية حرصه على التوفير ، ما يستطيع ادخاره يضيفه إلى حساب التوفير ، تتعدد الودائع بزيادة أرقام الحسابات .

قال لراوية :

ـ إن احتجت إلى شيء ، أطلبيه .. ما استطعت ادخاره هو من أجلكم !

ثم وهو يهز راحته فى تأكيد :

- وديعتى فى البنك ملك لك وللولدين .

وحك ذقنه بطرف سبابته:

- يشغلنى أن تتساووا فيما تأخذونه !.

قالت راوية :

- لا تنع هماً للخادمة ، اترك لى مفتاح الشقة ، سأتولى التنظيف والغسيل والطبخ والكى، كل شىء !

استيقظ على أشعة الشمس تلامس وجهه . تنبه إلى أنه نام دون أن يغلق النافذة . كانت الحجرة تسبح فى أشعة الشمس . لمح ذبابة تتقافز على سطح النافذة الزجاجى ، تحاول الخروج ، ففتح النافذة .

يعود من صلاة الفجر ، توقظه جلبة الطريق : عربات النقل المتجهة إلى الجمرك ، والعائدة منه ، صياح التلاميذ فى ذهابهم إلى المدارس القريبة ، جماعات عمال الميناء ، نداءات الباعة ، أحاديث المطلات من النوافذ ، يستعيد إيقاع جياد الملك - زمان - فى رحلتها الصباحية .

سعيد هو الذى عرض أن يلتقوا - عقب صلاة الجمعة - فى أكلة سمك .

قالت راوية :

- حبى للسمك يغرينى بالموافقة .

قال الأب :

- إذن اتركوا لى أمر شرائه من الحلقة.

اعتاد الشراء من الحلقة ، ومن أسواق المدينة التى يباع فيها السمك : شارع الميدان ، وكالة الليمون ، راتب ، باب عمر باشا ، باكوس ، المندرة ، وغيرها . يشترى الأنواع التى يعرفها وتذوق لحمها ، المياس ، البورى ، البربونى ، المرجان ، الدنيس ، القاروص ، السبيط ، البلطى ، الجمبرى . ربما أوصى على شروة ترسة ، يذهب إلى الحلقة فى الصباح الباكر ليحصل عليها فور الذبح .

علت شفتيه ابتسامة متأثرة :

ـ الميزة الوحيدة لما بعد المعاش هى الأبونيه المجانى للمواصلات !

وهز الأبونيه الصغير بيده:

ـ ربما ركبت الترام من أبو العباس إلى قهوة فاروق حتى أستخدم الأبونيه .

استطرد سعيد :

ـ واسطة بابا عينت مدحت فى النقل العام .. مرتبه لا بأس به !

حدجه رجب كيرة بنظرة متأملة، كمن يفتش فى ملامح وجهه عن أشياء يحرص على إخفائها.

استطرد سعيد:

ـ غابت عنى الواسطة فطال انتظارى للتعيين بعيداً عن ملاليم هيئة الميناء .

وقذف الهواء بقبضته:

ـ كان لابد أن أتصرف !

قال الأب:

- إذا قضينا على ظاهرة الترقى بواسطة شجرة العائلة ، فسيكون الحال أفضل !..

أظهر رجب كيرة تأثره لأحوال عمال القزق . لاذوا بالحلقة ، يعرضون المساعدة ، ينقلون الطبالى ، يشاركون فى الشروات ، فاجأهم قرار إيقاف تصاريح تصنيع المراكب . نوت مهنة صناعة اليخوت ، اقتصرت - لسنوات - على ورش القزق ، سرح من أعمالهم عشرات النجارين والحدادين وعمال الكهرباء والميكانيكا وصانعى الألوميتال ، ران السكون على مساحة الشاطئ ما بين مركز الشباب إلى شارع صفر باشا .

تناثرت الكلمات عن حكايات السياسة والتنقلات والترقيات والشائعات والبطالة وغلاء الأسعار واختفاء السلع وأحوال الجو والنوات ومسلسلات التليفزيون ومباراة الاتحاد السكندرى والأهلى وسباق الخيل فى سبورتنج .

قال رجب كيرة كالمتنبه :

- أين الأباصيرى ؟

مطت راوية شفتيها :

- لا أعرف !

وأشاحت بطرف يدها :

- فرصة ليحصل الولدان على راحة منه .

تعرف أن الولدين يجدان راحتهما فى هذه الجلسات ، تغيب ملاحظات الأباصيرى وشخطاته وأوامره .

قال حسين:

ـ خذنى إلى الصخرة يا خالى .

زوى رجب كيرة حاجبيه فى دهشة :

ـ هل وصل خبر الصخرة إلى الولدين ؟

تجاهل مدحت ملاحظة أبيه ، اتجه إلى حسين بنظرة حانية :

ـ إذا نجحت فسأصحبك إلى الصخرة .

تحدث رجب كيرة عن أغرب تحقيق كلفته به إدارة الشركة . أجرى سين وجيم مع سائق ترام ، بعد أن أُحْرق ترام كان يقوده فى مظاهرة ضد الحكومة .

رسم التأسف على ملامحه :

ـ اعتذرت للرجل لأن التهمة التى حاسبته عليها هى التغيب عن أداء عمله !

وغالب تأثر صوته:

ـ هل كان عليه أن يحترق فى الترام كى لا يعاقب ؟!

قال سعيد :

ـ لتكن مصر شعارك ، ثم افعل ما شئت .

قال رجب كيرة :

ـ إنهم يسرقون .

ـ ومن لا يسرق ؟!

وربت ركبته :

ـ اسم مصر واجهة جميلة .

قالت راوية :

ـ هل نأمل فى ثورة ؟

تجاهلت نظرات الدهشة فى الأعين المتجهة نحوها .

لم تكن راوية تشارك فى المناقشات ، تكتفى بالإنصات دون أن تبدى رأياً ، أو بالتعبير الصامت عن الموافقة أو الرفض . غابت ملاحظاتها عن أخبار التليفزيون والإذاعة ، وما كانت تقرأه . بعد الزمن بينها وبين قراءة الصحف. كان الأباصيرى يشترى ـ كل أسبوع ـ جريدة "النور" . أوقفت عن الصدور . لم يستبدل بها جريدة ثانية.

كانت عيناها توزعان الود . لم تعد ـ منذ وفاة أمها ـ أماً لولدين ، تعتبر نفسها مسئولة عن الجميع ، حتى أبوها تتجه إليه بالملاحظات ـ وربما المؤاخذات ـ التى تعلن ضيقها وتذمرها .

قال رجب كيرة :

ـ الثورة استثناء فى حياة المصريين ، ثورة يوليو لا يمكن أن تتكرر!

حدجه مدحت بنظرة متسائلة، كأنه يتأكد من قوله.

وشى صوت الأب بالاستياء:

ـ نحن لا نصون السر !.. حتى ثورة يوليو كادت تنكشف لأن واحداً من ضباطها باح بسرها لأمه !

اشترى مدحت من شارع النبى دانيال نسخة قديمة من " آثرت الحرية " ، كتاب الروسى كرافتشنكو . ثنى إلى أبيه ملامح مستاءة :

ـ هل الشيوعية قاسية إلى هذا الحد ؟

قال فى تهوين :

ـ كل المذاهب جميلة على الورق ، لكن التطبيق يفسدها .

ـ فلماذا هجرت الشيوعية ؟

رمقه بنظرة استغراب :

ـ لم أعتنقها لأهجرها ..

نطقت عينا مدحت بعدم التصديق.

قال الأب:

ـ تلك تهمة المباحث .

ثم وهو ينظر ـ بتلقائية ـ إلى الكتب على الأرفف:

ـ لا أنكر أن الماركسية علمتنى النظرة العلمية لتفسير الأشياء .

أخلى مدحت ملامحه للدهشة :

ـ ألم تنضم إلى تنظيم شيوعى ؟

تكلف ابتسامة :

ـ التنظيم الوحيد حلقة الذكر على رصيف البوصيرى !

استحثه بنظرة مشجعة.

قال الأب:

ـ فتشوا فى المكتبة عن أدلة تزكّى اتهامهم المسبق !

ولوح بيده إلى الوراء:

ـ كانوا أيامها ضد الشيوعية !

وغالب التأثر:

ـ كنت أقرأ فى الشيوعية ، استهوانى دفاعها عن الغلابة .

استطرد فى تأثره:

- كرهتها بعد تدخل الروس للقضاء على ثورة المجر !

تعمد مدحت أن يخفض صوته :

- هل جعلت نفسك مسئولاً عن العالم ؟

ثنى ناحيته قسمات متألمة :

- لو أن هذا السؤال الاستنكارى تفشى ، فلن يوجد شيء يدافع عنه الناس !

ألف الأب عدم مشاركته - إلا نادراً - فى المناقشات . لا يذكر متى استكان إلى الهدوء والصمت ، لا يسأل ، ولا يتكلم إلا إجابة عن سؤال، الشرود يكاد لا يفارقه ، صوته الباتر أميل إلى الشحوب . إذا سأل فبكلمات قصيرة ، سريعة ، لا تنتظر إجابة مسهبة . قد يهمس بأنه مرهق ، أو أنه سيخلو إلى القراءة ، ينسحب إلى غرفته ، يغلق الباب تماماً يتيح لهم الكلام ، أو مشاهدة التليفزيون دون أن يخفضوا الصوت .

يتملكه الخوف من أن تنقطع الخيوط التى تربط مدحت بالدنيا من حوله ، لا يبدو أن الصداقة تعنيه ، أو تشغل باله .

إذا كان قد اكتفى بالجلوس فوق الصخرة ، واطمأن إلى صداقة الكتب ، فماذا عن صداقة الناس ؟!

قال مدحت :

- صداقة الصخرة .. ألا تكفى ؟

- هل تغنى الصخرة عن الناس ؟؟ غاية ما تفعله أن تجلس فوقها . أنت لا تستطيع أن تستغنى عن الناس !

سعيد هو الذى يعطى ويأخذ ، وينتصر لرأيه ، يرفع الصوت وتعبيرات اليدين ، حتى راوية تعلن آراءها فى غيبة الشيخ .

قال :

أهمل سعيد ملاحظته أنه يلتهم الطعام دون مضغ :

- استمتع بالأكل ، لا تكتف بسد البطن .

قال رجب كبرة :

- لو أنك اشتريت شقة جديدة بدلاً من السيارة .

وفى لهجة مستخفة:

- أنت تقضى فى الشقة معظم وقتك ، أما السيارة فهى للطريق .

- السيارة مظهر اجتماعى ، وسيلة لجذب الفلوس !

واتجه - فى هيئة المتذكر - ناحية أبيه :

- ما رأيك فى الساحل الشمالى ؟

أطرق لحظة ، ثم قال :

- اسمع عنه .

- تريد زيارته ؟

وهو يشيح بيده :

- يكفى - فى هذه السن - حلقة الذكر .

تأمل مدحت وسعيد فى تقارب جلستيهما . لم يستوقفه - من قبل - ما إذا كانت العلامات بينهما فارقة ، أم العكس ، لا يحاول تبين الفروق. هما متماثلان فى طول القامة ، وإن مال مدحت إلى الامتلاء ، متقاربان فى الحاجبين الكثيفين ، والأنف المستقيم ، والعينين البنيتين ،

تبرقان فى وجهيهما المائل إلى السمرة . فسر سمرة بشرة مدحت الغامقة ، بجلوسه - معظم أوقات العصارى - فوق الصخرة . المظلة الصغيرة من فوقه لا تمنع أشعة الشمس ، ولا تأثيرات البحر . لكن شخصية كل منهما تختلف تماماً عن شخصية الآخر . حركاتهما متشابهة ، رغم السرعة فى حركات سعيد وكلماته . لم يكن يرى فى نفسه حاجة للقراءة ، هو يقرأ الناس والبيئة والخبرات ، يغنيه ذلك كله عن أية قراءة . إن تحرك ، تحرك كل جسده ، وارتعشت يداه بالانفعال. أميز ما فى مدحت أنه يكتم مشاعره ، لا يفضحه وجهه ، وإن تشابهت النبرتان ، ويستخدم كل منهما مفردات ، هى له ، تأتى فى كلماته ، يعبران - مثله - عن المعانى بإشارات الأيدى ، وارتفاع الصوت وهدوئه .

حل التفاهم بينهما ، جاوزا ما كان اعتاده ، وأقلقه ، فى طفولتهما من الميل إلى العراك . لكل منهما أفكاره وآراؤه ، لا يعنى بأن يفرض ما قال ، يستجيبان إلى ما سماه سعيد ملاحظاته التوفيقية ، يسهل النقاش عزوف مدحت عن الكلمات الكثيرة ، وتوضيح ما يرى أنه واضح من نفسه .

وجد فى اختلاف نزوع كل منهما ما يلغى الكره بين ذوى الظروف المتشابهة ، حتى لو كانوا أخوة ، أو لأنهم إخوة .

يطمئن رجب كيرة إلى مكانته ، عندما يحل الصمت ، تتجه الأعين إليه تنتظر رأيه ، لا يذكر أن أحدهم طال نقاشه فى ما قال ، أو كان له رأى مخالف .

ربما ناوشه السؤال : هل يحرصون - بعد رحيله - على اللقاء ، الجلوس للمؤانسة والمناقشات وحل المشكلات الطارئة ، أم يستقل كل منهم بحياته ؟ ومن ينصت إلى راوية إن أرادت البوح بما فى نفسها؟

ذكره الرجل بنفسه :

ـ شاهين فصادة .

هو الرجل الذى يستأجر منه مدحت الفلوكة إلى صخرة الأنفوشى .

أعاد التحديق فى ملامحه : الجسد النحيل ، الوجه الشاحب ، المصوص ، التجاعيد المحيطة بالعينين الضيقتين ، والفم المزموم . الكوفية المزركشة فوق الجلباب البوبلين ، تحيط بعنقه ، تنسدل أطرافها فوق صدره .

كان جالساً فى زاوية قهوة السمان ، خلت من الرواد ، عدا ثلاثة إلى جانب النافذة المطلة على الميناء الشرقية ، استغرقهم لعب الكوتشينة ، وبائع فريسكا أسند صندوقه الزجاجى إلى إفريز الشباك ، ليلتقط أنفاسه . الإضاءة خافتة بتأثير إسدال الستائر على النوافذ الخلفية ، والجانبية ، الأرض مرشوشة بنشارة الخشب ، الجرسون جودة يضع فوطة برتقالية على كتفه فوق الجاكت الأسود ، يتحرك ما بين النصبة ناحية اليمين والطاولات خارج القهوة ، فى يده اليمنى الصوانى المحملة بفناجين الشاى والقهوة وأكواب العناب والمشروبات الباردة ، وفى اليسرى نارجيلة ، التف حولها اللى والمبسم .

هتف للحزن فى عينى الرجل :

ـ مدحت !

اتجه الرجل بنظراته إلى غير مكان :

ـ مشيئة الله !

متى ؟ كيف ؟

المعنى الذى حاول الرجل مداراته فى كلمات مواسية ، صرفه عن المتابعة . أحس كأن موجهة هائلة قد انقضت عليه ، فأغرقته ، فقد القدرة على التقاط الأنفاس ، والتلفت ، والوعى بما حوله .

تصور - وهو يمضى ناحية نقطة الأنفوشي - لحظات مواجهة مدحت للمصير المؤلم ، صيحات استغاثته بمن ينقذه : هل سقط من الفلوكة ، أو خانته الصخرة الزلقة ؟ هل زلت قدمه فأخذه الموج ؟ هل انتحر ؟

صارحه - فى الليلة الماضية - بضيقه من طبيعته المترددة ، وحرصه أن يترك له التصرف فى المشكلات التى تواجهه ، هو لا يشغله - وربما لا يعرف - تدبير أموره بمفرده ، يحتاج إلى رأيه ونصائحه .

كيف سيواجه الحياة بدونه ؟

لم تكن أمك ذات طبيعة مترددة ، أو قلقة . أى جينات أورثتك هذا التردد ، وطلب نصائحى التى ربما لا تكون صحيحة ؟

قال :

- زرتك فى المكتب ، عرفت أنك ترفض الذهاب حتى تسترد حقك .

وسرت فى صوته نبرة تحذير:

- القعاد فى البيت لن يأتى بهذا الحق .

- نحن فى غابة ، إدارة التفتيش جزء منها .

تثنى إليه ملامح ضيق :

- هل تعرف أنى فصلت منذ الاعتقال ؟

اكتفى مدحت بالتحديق فى وجهه، وظل صامتاً.

قال الأب:

ـ عدت إلى الإدارة بقضية .

ثم ضغط على الكلمات:

ـ الإدارة هى عملك وراتبك ، هى مستقبلك .

اكتفى مدحت بهز كتفيه:

ـ لا أحب التآمر !

تفحص الأب وجهه كأنه يقيس مدى تأثير كلماته:

ـ فرق بين التآمر وضرورة الحصول على الحق .

وهمس فى ضيقه :

ـ ستظل تترك لى التصرف ، حتى أدخل على عروسك بدلاً منك !

لم يلحظ إن كان مدحت ينصت بالفعل ، أم أن هزات رأسه لمداراة عدم الفهم والمتابعة ؟. وتوتر صوته بالضيق:

ـ هذه حياتك ، والقرار الذى تتخذه ينعكس عليها ، لا أحد غيرك سيتأثر بالقرار الخاطئ!

ولكزه فى كتفه :

ـ كن قوياً ، ولا تتظاهر بالقوة !

وتحسس جانب رأسه:

ـ خبرة الناس تكشف الزيف !

أسقط مدحت صمته ، وهو يحدج أباه بعينين ملتمعتين :

ـ لو أنك لم تظهر الخوف !

فى دهشة :

ـ أظهر الخوف ؟!

ـ يوم اعتقلتك المباحث .

أشاح بيده :

ـ إنها أيام كثيرة .

فوت مدحت الملاحظة . ران على صوته أسى :

ـ لو أنك حاولت رد الاعتداء ، أو حتى اكتفيت بالصراخ .

لم يزايل ما حدث نفسه : أبوه يتقى بيديه المتشابكتين أمام وجهه ، ضربات الرجل ذى البذلة الشاركسكين ، والنظارة الشمسية . يحاول أن يتماسك فى مواجهة الصفعات واللكمات والركلات .

أحزنته الارتعاشة فى جسد أبيه ، وإن زادتها الضربات ، حتى دفعه الرجال فى السيارة أسفل البيت ، وانطلقوا بها .

تأثرت نفسه بما حدث . تشاغل بعمله وكتبه وأوراقه ، لكن الحادثة القاسية ظلت فى باله ، لا تتركه .

عرف ـ فيما بعد ـ أن معتقلى أبيه كان يجب أن يحملوا أمراً من النيابة . لو أنه ألقى السؤال ، هل كان الضابط يكتفى بدفعه ليتجه بالضربات إلى أبيه ؟

حاول رجب كيرة أن يلملم انفعالاته :

ـ خوفى الذى تكلمنى عنه له سبب ، أما أنت فتخاف بلا سبب !

ـ رؤيتى لما حدث ، أليست سبباً كافياً ؟!

ـ أنا فعلت ما اعتبرته الحكومة خطراً عليها ، أما أنت ..

وقلص ملامحه فى حيرة :

ـ أنت تكتب ما لا يؤذى !

أغمض مدحت عينيه كأنه يتهيأ للبكاء :

ـ كتاباتى محملة الخوف !

ثم فى لهجة تسليم:

ـ الخوف عدوى .

وأشار إلى صدره:

ـ لو أن راوية تعيش ظروفاً طبيعية ، ربما سافرت بدلاً من الجلوس فوق صخرة !

همس رجب كأنه يكلم نفسه :

ـ الظروف التى نعجز عن هزيمتها ، يجب أن نتحملها !

كانت فترة الاعتقال محدودة ، لكنها أحدثت فى نفسه تأثيراً لم يستطع التخلص منه ، أو مغالبته . تومض فى ذهنه ـ أوقات يومه ـ لحظات مختلطة للطرقات العنيفة على الباب ، الصيحة الهادرة : افتح ، اندفاع الجنود داخل الشقة ، نزول السلم ـ متعثراً ـ بلكزات الأيدى ، السيارة الزرقاء ، التحقيقات المحملة بالإهانة ، نظرات الجيران وأصحاب الدكاكين ، تخلى رواد المقهى المقابل عن كراسيهم ، على الوجوه يختلط التساؤل والفضول والدهشة . حتى الجرسون تجمدت يده بالصينية ، وهو يتابع ما يجرى .

وشى صوت مدحت بنبرة مشفقة :

- أذكر أنى سألت نفسى : ما يحدث لو أنى واجهت ما واجهته أنت. تبينت أنى لم أكن سأفعل شيئاً ، تأخذ هيئتى الصورة نفسها التى حاولت أن تتقى بها ضرباتهم ، ربما علا صوتى بالصراخ ، وهو ما كتمته أنت ، فأغلقت فمك كى لا تطلقه .

واجهه بملامح مستاءة :

- هل تظن أنى كنت راضياً عن أذية الضابط لى ؟

السؤال الذى ظل فى باله : هل كان الضابط يضربه لو أنه توقع رد فعل مماثلاً ، أو أقوى منه ؟

لاحت فى عينيه نظرة أسى:

- أقسى الأمور أن يواجه المرء ما لا يستطيع أن يرويه .

وتهدج صوته بالانفعال:

- أنت لا شيء إن لم تستطع رد الأذى بمثله !

ولوى شفتيه متألماً:

- القهر صعب !

يؤلمه الإحساس بأنه لم يعد لديه القدرة على فعل أى شيء ، لا ينبجس الشعور من داخله ، إنما تنقله إليه الملاحظات ، والأسئلة ، وعبارات الإشفاق والمؤاخذة ، يتوقعها حتى من أبنائه .

هل انتهى مدحت ؟ هل انتهى كل شيء ؟!

تعددت ضغطاته على زر الجرس ، عرف أن راوية ليست فى الشقة. أدار المفتاح فى الباب ، ودخل .

قبل أن يضيء النور ، ترامى صوت لم يتبين مصدره ، الأبواب والنوافذ مغلقة ، والصمت سادر .

لاحظ إضاءة شاحبة متسربة من باب حجرة النوم الموارب . دفع الباب . التحم الشبحان الملتفان بالظلمة ، كأنهما اندمجا فى هيئة واحدة .

امتدت يده ـ بتلقائية ـ إلى مفتاح النور .

راوية !.

تداخل جسدها العارى فى جسد لم يتبين قسماته . أخذه الذهول ، فظل صامتاً ، استغرقه الأنين والصراخ المكتوم والحشرجة والمشهد الذى لم يتصور أنه يرى راوية فيه .

بدأ جسدها غريباً عنه ، كأنه ليس لها ، كأنها امرأة لا يعرفها ، ليست راوية التى اعتاد ـ منذ طفولتها ـ أن ترتدى ثيابها ، خلا من المشاعر والانفعالات التى كانت ـ حين يواجه ما يصدمه ـ تعتمل فى داخله . لفته مشاعر غريبة ، لم يألفها من قبل ، ما يشبه الغيبوبة حطت عليه ، لا يدرى إن كان فى الدنيا ، أم فى تهويمات لا يعرفها ، يقف بمفرده ، أم أن الحياة تمور من حوله ، فقد القدرة على الحركة ، عانى تثاقل خطواته ، وتخاذلها ، لا يقوى على السير خطوة إلى الأمام، أو إلى الخلف ، أو التلفت ، قدماه ساكنتان ، ثابتتان ، كأنهما ربطتا إلى قيد لا يراه ، كأنهما فقدتا الحياة .

جالت عيناه فى الأثاث والسقف والجدران ، دون أن تلتقطا شيئاً مما تريانه . تجمد الفراغ حوله ، وسكنت المرئيات ، واختلط الزمان والمكان ، لا يتثبت أين هو ، ولا ماذا يرى .

تناثرت ثيابهما على الملاءة التى تكرمشت ، واختلطت بها . حتى المخدتين الصغيرتين ، تشابك بهما العناق ، وتداخلت الأنات والصرخات المكتومة والحشرجات والصرير الرتيب للسرير من تحتهما.

استغرقتهما اللحظة . لم يلحظا دفعة الباب ، ولا وقفته الغاضبة ، ولا الضوء الذى ملأ الحجرة .

كانت ساقاها قد أحاطتا بظهره العارى ، فى التحام جسديهما ، بما صنع تكويناً واحداً ، متكوراً .

عرف حودة من شعره الأسود المنسدل إلى ما تحت قفاه .

لم يبد أنهما حتى لحظا مغادرته الحجرة .

اقتحمته رعشة لم يستطع كتمها ، استشعر داخله ما يصعب عليه فهمه ، أخذه ما يشبه الغيبوبة ، لم يصرخ ، ولا تصرف على أى نحو .

مضى - دون أن يتلفت - ناحية باب الشقة ، هبط سلم الطوابق الثلاثة بآلية . ابتلع يوسف شعيرة بائع الصحف كلماته المرحبة لما واصل السير دون أن يبدو أنه لاحظ كلماته . مال من اليسار إلى شارع الحجارى ، تدفعه قوة ، لم يحددها ، ولا حاول تفسيرها . رأسه يخلو من أية فكرة عن المكان الذى يتجه إليه .

قادته الخطوات الذاهلة إلى طريق الكورنيش . البيوت أضاءت أنوارها ، والمرئيات دخلت فى الشحوب ، وحركة السير تزايدت .

لم يشعر بالمارة ، ولا بالواقفين لصق الكورنيش الحجرى ،ولا تنبه إلى البرك الآسنة ، صنعها إلقاء المياه أمام الدكاكين والمقاهى والبيوت. الحزن يتصاعد فى نفسه ، ورأسه يثقل ، والرؤيا ضبابية ، والمرئيات تغيب فى التلاشى ، والتوقعات يصعب تقبلها .

أدرك أنه وصل إلى قبالة البحر من أضواء البلانسات القليلة ، المتناثرة ، فى مساحات المياه .

عبر الطريق .

خلف - عن يمينه - ورش القزق ، واتجهت نظراته ناحية الصخرة فى أفق الأمواج . الرؤية - رغم الظلمة الشفيفة - ممكنة ، وإن اصطبغت المرئيات برمادية باهتة .

آخر لحظات النهار .

لم تعد الفلوكة فى موضعها ، هى الفلوكة التى كان يمضى بها مدحت إلى الصخرة . هل غاصت الصخرة فى البحر ؟ هل ابتلعتها المياه ؟ هل انتقلت من موضعها ؟

الهواء طياب ، البحر حصيرة ، النوة هى التى تحرك الأمواج ، فتقلب البلانسات والقوارب الصغيرة .

قال لمدحت وهو يتابع إعداده الحقيبة البلاستيكية :

- هذه الساعات التى تقضيها فوق الجزيرة ..

وتفحصه بنظرة متسائلة :

- من جلساؤك ؟

- لا أحد !

رسم الاستغراب على ملامحه :

- تمضى النهار بمفردك ؟

- أحب أن أخلو إلى نفسى !

ـ تفر من الناس ، أم من نفسك ؟

ـ مجرد أن أجلس فى هدوء .

ـ ألا تكلم أحداً ؟

ـ أتأمل البلانسات والفلايك فى عمليات الصيد .

زوى ما بين عينيه، كأنه يستوعب معنى الكلمات:

ـ هل تصعب عليك المشاهدة من البر ؟

ـ اعتدت الجلوس فوق الصخرة .

وأشار بيده تجاه النافذة:

ـ هى قريبة من الأنفوشى ، وتبعد عن الشاطئ فى الوقت نفسه . أرى الساحل والبيوت وحركة الطريق ، وتغيب عنى أصداء ذلك كله !

تلفت لحفيف فوق رأسه . تابع بعينيه ـ فى الظلمة الشفيفة ـ طائر نورس ، يحلق على امتداد الشاطئ . بالقرب من قلعة قايتباى ، دار الطائر حول نفسه ، لحق سرب النوارس فى رمادية الأفق .

شحب النهار بانسحاب الشمس إلى المغرب ، السماء الرمادية الصافية تلتقى الأفق فى نهايته ، يعلوها ما يعرف أنها نجمة المساء . بدأت الأضواء فى التناثر على واجهات البيوت ، أمست المرئيات كالأطياف ، أو التكوينات الهلامية ، ثم أدركها التلاشى . صار الأفق ممتداً ، بلا نهاية .

لفه الذهول ، فأهمل انبثاق الضوء من ناحية الصخرة ، لم يلحظ إن صدر من قلب الصخرة ، أم من جهة لا يراها .

اجتذبه اختلاط الضوء والعتمة ، وتمازج الألوان ، وتعالى أصوات

كالأنغام ، كالأغنيات ، وتناثر البلانسات والقوارب ، وشحوب النجوم ، وأعلام فرق الصوفية ، وصيحات الطيور ، وترامى التسابيح من مئذنة أبو العباس ، وإيقاع الذكر ، والإنشاد ، والأدعية ، والتراتيل ، وصفير البواخر فى الميناء الغربى ، ودوائر الضوء الوامضة المنبعثة من الفنار، والنداءات المجهولة .

تناثرت فى السماء حروف وكلمات وأسماء ، انتشرت هالات الضوء، تصاعدت النداءات ، شكلت خيمة من الأصوات المنغمة ، يقف فى قلبها . تداخلت فى الصخرة ومدحت وراوية والنافذة المطلة على أبو وردة والنوات وحلقة الذكر وسعيد وصيد الجرافة وحودة وشروات حلقة السمك ووسوسة النخيل والشيخ الأباصيرى ومقام أبو العباس واحتفالات المولد وتلاقى أذان الفجر من المساجد المتقاربة وورش المراكب وعسكرى السواحل وتكبيرة الصلاة ومخازن الترام وضوء الفنار وصافرات المراكب وشروات حلقة السمك وهسيس النخيل فى امتداد الكورنيش .

هل هو تهيؤ لنوم ، أو لإغماءة ، أو أنه يموت ؟

قال لراوية : معاشى أصرف لأقله لأدخر لكم ، وقال مدحت : ليتك تطلب من الأباصيرى أن يحسن معاملة راوية ، وقال : أنا لم أعدل عن فكرة السفر إلا لأن علاقتها بهذا الرجل لابد أن تنتهى ، وقال سعيد : إذا أردنا النجاح فى هذا المشروع ، فلابد أن نفك وديعتك فى البنك ، وقالت راوية : عندى أشياء كثيرة أود قولها لك ، وقالت : هل من الكبائر دعوة الزوجة على زوجها الظالم أن يأخذه الله ؟، وأومأت راوية بما لم يخطر فى باله: لم أكن أعرف الكره قبل أن أتزوج هذا الرجل، وسرت فى صوت الطراوى نبرة كالتشفى: مؤلم أن يصارحك أبناؤك

أنهم لا يحتاجون إليك، وقال أحمد جعفر: لماذا تتصور أن أولادك فى حاجة إليك ؟ ، وبدت مروة فى هالة شعرها الحنطى جميلة وطيبة، وعاوده الإحساس بأنه لم يعد لديه القدرة على فعل أى شيء، وقال الطراوى : من الصعب أن يجد أبناءنا وظيفة ما لم يكن لدينا واسطة ذات تأثير، وقال مدحت: هل جعلت نفسك مسئولاً عن العالم ؟

فاجأته آلام فى أعلى كتفه وصدره، انتقلت إلى ظهره بما يشبه اعتصاراً قاسياً، لا يقوى على تحمله .

داخله شعور بالحنين إلى ما يصعب تبينه، ما يشبه الرؤى والتصورات، لا يستبين ملامحها، ولا تطرح معنى محدداً .

غابت فى سطوع الضياء زرقة السماء، وأشعة الشمس، والسحب المتناثرة. لم يعد إلا الفيوض النورانية الهائلة أمامه وحوله، يراها، ويرى الأطياف المتماوجة، كأنها ترقص، أو تتصارع، لا يدرى من أين أتت، ولا يدرى مصدر الأنغام التى سيطرت عليه تماماً، لا يقوى على مغالبتها، أو لزوم مكانه .

أحس بروحه خفيفة، كأنه طائر يهم بالتحليق، يعلو، ويعلو، ينطلق فى الأفق الواسع أمامه.

محمد جبريل